# جوانب التميُّز العلمي للعلامة حسن العطار

## (ت: ١٢٥٠هـ)

د. عبد الغفار عبد الرؤف حسن عبد الرؤف

مدرس بقسم الثقافة الإسلامية
كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة
جامعة الأزهر

## ملخص البحث

## جوانب التميُّز العلمي للعلامة العطار (ت: ١٢٥٠هـ)

عبد الغفار عبد الرؤف حسن عبد الرؤف
قسم الثقافة الإسلامية
كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة
جامعة الأزهر
**E-mail**: abdelghafarhassan.2013@azhar.edu.eg

## الملخص

تفرَّدَ العلامة العطار بمدرسة خاصة، جَمَعَتْ بين المعارف العقلية والنقلية والسلوكية والتجريبية؛ لذا هدف البحث إلى استقراء مؤلَّفاته من شروح وحواشٍ ورسائل لاستخلاصِ العوامل المكوِّنة لشخصيته، وقبل ذلك نضعُ يدَ القارئ على صورة إجمالية لعصره من الناحية السياسية والاقتصادية والفكرية؛ لنلاحظ الرابط التفاعلي بينه وبين عصره.

وقد خَلَصَ البحثُ إلى نتائج، أهمها: أنَّ العلامة العطار مدرسةٌ فريدةٌ نالت قَبُولَ ما يُعْرَفُ بمدرسة المحافظين ومدرسة الإصلاحيين معًا؛ لجَمْعِهِ بين القديم والحديث، والأصول والفروع، وعلوم العرب والعجم، وكان من أسرار تميُّزِه عن أقارَنِهِ: أنه انفتح على الثقافات المختلفة، فاتصل بمدرسة العجم، ولم يكن لأهل ديارنا عِلْمٌ بهذه المدرسة آنئذٍ، وتلقَّى منهم علومًا لم تكن ذائعةً في بلادنا كعلم الطب والهندسة والمقولات وصناعة التوجيه، ووَقَفَ على كُتُبٍ كان لا يملكها غيره في مصر نَسَخَهَا من بعض القادمين من بلاد العجم.

**الكلمات المفتاحية:** العلامة العطار – حسن العطار – شيخ الأزهر – – التميز العلمي – المنهجية العلمية.

# The Scientific Excellence Aspects of Al-Attar (d. 1250 AH)

**Abdelghaffar Abdelraouf Hassan Abdelraouf**
**Department of Islamic Culture**
**Faculty of Islamic Da'wah, Cairo**
**Al-Azhar University**
**E-mail: abdelghafarhassan.2013@azhar.edu.eg**

## Abstract

Al-Attar distinguished himself with a unique school that combined rational, traditional, behavioral, and experimental knowledge. Therefore, the aim of this research is to examine his works, including explanations, annotations, and letters, in order to extract the factors that shaped his personality. Before that, the reader is given an overview of his era from political, economic, and intellectual perspectives to observe the interactive connection between him and his time.

The research yielded several results, including the following: Al-Attar's school was a unique one that gained acceptance from both the conservatives and reformists, as it combined the old and the new, the principles and the branches, and the sciences of the Arabs and non-Arabs. One of the secrets of his distinctiveness from his contemporaries is that he was open to different cultures, as he established connections with the non-Arab school, which was not known in our lands at that time. He acquired knowledge from them in fields that were not widespread in our country, such as medicine, engineering, maxims, and guidance. He also had access to books that others in Egypt did not possess, as he copied them from some of those who came from non-Arab lands.

Keywords: Al-Attar, Hasan Al-Attar, Sheikh of Al-Azhar, scientific excellence, scientific methodology.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، اللهمَّ يا مُيَسِّرَ كلِّ عسير، ويا جابرَ كلِّ كسير، ويا صاحِبَ كلِّ فريد، ويا مُغْنِيَ كلِّ فقير، ويا مُقَوِّيَ كلِّ ضعيف، ويا مَأْمَنَ كلِّ خائف، يَسِّرْ علينا كلَّ عسير، فتيسيرُ العسير عليك يسير.

والصلاةُ والسلامُ على نورِ الأنوار، وسِرِّ الأسرار، وسيد الأبرار، وزين المرسلين الأخيار، وأكرم مَن أظلم عليه الليل وأشرق عليه النهار، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، اللهمَّ وكما آمَنَّا بسيدنا محمدٍ ولم نَرَهُ؛ فلا تَحْرِمْنَا في الجِنان رؤيتَهُ، وارزقنا صُحْبتَهُ، وتوفَّنا على مِلَّتِهِ، واسقِنَا من حَوْضِهِ مشربًا رَوِيًّا سائغًا هنيئًا لا نظمأ بعده أبدًا، إنك على كل شيء قدير.

**أما بعد...**

فالكاتبون في العلم على نوعين: نوع لم تَزِدْ مَهْنَتُهُ عن جَمْعِ ما كَتَبَهُ السابقون، ونوع آخر من أهل التحقيق والتدقيق والترجيح، لا مجرد جامع لما سبقه، بل يُحلِّلُ وينقدُ، فيشير مرةً إلى مواضع القوة، وأخرى إلى مواضع الضعف، ويُورِدُ الإيراداتِ تارةً، ويدفعها تارةً أخرى، وكلا النوعين مهمٌ، بيد أنَّ الثاني أعلى وأجود.

ومَنْ يقرأ في علم المنطق مثلًا يجد بعضَ شُرَّاحِ السُّلَّمِ المنورق للعلامة الأخضري ينقُلُون كلامًا متقاربًا، فمثلًا: العلامة الدمنهوري والقويسني والباجوري والصبان ينهلون من الشرح الكبير على السلم للعلامة الملوي، ومن جانب آخر تجد تحقيقاتٍ نفيسةً تُنسَبُ إلى أعلامٍ بعينها كالعلامة الجلال الدَّوَّاني ومير زاهد والكانقري.

وفي علم صناعة التوجيه المشهور بآداب البحث والمناظرة تجد كثيرًا من الشروح والحواشي إنما تعتمد على حاشيتي مير أبي الفتح ومير صدر الدين الشرواني على شرح منلا حنفي على الرسالة العضدية، وعلى الرسالة الولدية

وتقرير القوانين لساجَقْلِي زاده المعروف بالمرعشي.

وفي علم الكلام تجد كثيرًا من الشروح والحواشي منهلها الرئيس هو شرح السيد الشريف الجرجاني على المواقف لعضد الدين الإيجي وحاشية عبد الحكيم السيالكوتي عليه، وعلى المقاصد وشرحه لسعد الدين التفتازاني، وعلى طوالع الأنوار للبيضاوي وحاشية شمس الدين الأصبهاني عليه المعروفة بمطالع الأنظار، وعلى أم البراهين المعروفة بالعقيدة الصغرى للسنوسي وما عليها من شروحٍ وحواشٍ لا سيما حواشي العلامة السُّحَيْمي والهَدَّاجِي المعروف بالدَّرَاوي وابن المصري والدسوقي والشرقاوي والعقباوي والجوهري... إلخ.

والعلامة العطار واحدٌ من أولئك المحقِّقين، وله طريقةٌ فريدةٌ في مؤلَّفاته، وطريقتُهُ أنه يَعْمِدُ إلى متنٍ مُعْتمَدٍ في فنٍّ من الفنون، ثم يَعْرِضُهُ على دواوين الفن، ثم يُدرِّسُهُ لمجموعةٍ من النابهين، ثم ينسُجُ حاشيةً متضمنةً للتحقيقات والإيرادات والأجوبة، فتصبح حاشية زبدة ما اطَّلَعَ عليه من الحواشي، وما أَوْرَدَهُ الطلبةُ في الدرس، وفرقٌ بين كتابٍ وُلِدَ بين أحضان التدريس والمدارسة، وكتابٍ وُلِدَ بمعزلٍ عن الدَّرْسِ والتدريس!

وعلى هذا النهج كَتَبَ حاشيته الصغرى والكبرى على مقولات السُّجَاعي، وحاشيته الكبرى على مقولات البُلَيْدِي وهي أعظم الثلاثة، وكَتَبَ حاشيته على شرح منلا حنفي في علم آداب البحث، وحاشيته على شرح الأزهرية التي كان يدرسها بالجامع الأزهر إبَّان مجيء الاحتلال الفرنسي إلى مصر.. إلخ.

ولما عَجِبْتُ من شخصيته ذهبتُ أقرأ في ترجمته، فرأيتُ الدكتور أسامة الأزهري صرَّح في جمهرة الأزهريين أن العلامة العطار صاحب مدرسة خاصة به؛ إذ المشهور أنَّ في الأزهر مدرستَين:

الأولى: مدرسة المحافظين، ويُمثِّلها قطاع كبير، كالعلامة شمس الدين الأنبابي.

الثانية: مدرسة الإصلاحيين، ويُمثلها قطاع كبير، كالإمام محمد عبده، والإمام الأكبر محمد مصطفى المراغي.

رأى الدكتور أسامة الأزهري أن هناك مدرسة ثالثة مقبولة من المدرستين السابقتين، وسماها بـ (مدرسة المحافظ المستنير) ويُمثلها العلامة العطار ومَن نحا نحوه، كالشيخ رفاعة الطهطاوي، والشيخ محمد عياد الطنطاوي، والشيخ محمد بخيت المطيعي، والشيخ محمد عبد الله دراز وعدد من العلماء(١).

فَبَعَثَنِي ذلك على محاولة قراءة شخصية العلامة العطار، وكان عماد ذلك هو ما وراء كَلِمِهِ في شروحه وحواشيه؛ إذ الكلام في ترجمته غير كثير.

**أهداف البحث**:

١) الوقوف على ملامح حياته الشخصية والعلمية.

٢) معرفة العوامل المكوِّنة لشخصية العلامة العطار.

٣) كشف سر عظمته من وراء كَلِمه في كتاباته فضلًا عما نُقِلَ عنه.

**أسباب اختيار البحث**:

١) تفرُّد العلامة العطار بمدرسة خاصة به جامعة بين المعقول والمنقول، وبين القديم والجديد.

٢) تنوع معارفه التي تجمع بين علوم المعقول والمنقول والسلوك والتجربة.

٣) وقوفه على بعض معارف مدرسة العجم.

**خطة البحث**:

جاء البحث في تمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة.

أما التمهيد، فشمل: الحياة السياسية، والحياة الاقتصادية، والحياة

(١) ينظر: جمهرة أعلام الأزهر في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الهجريين: د. أسامة الأزهري، ١/١٥١.

الفكرية.

وأما المباحث، فهي:

المبحث الأول: حياة الشيخ حسن العطار ونشأته.

المبحث الثاني: الصفات الشخصية والعلمية للعطار.

المبحث الثالث: منهجية العطار العلمية.

ثم النتائج والتوصيات، وقائمة بأهم المراجع.

## تمهيد

## الحالة السياسية

أهم ما تتسم به الحالة السياسية المصرية في عصر العطار هو تعدُّد أطراف السلطة الرمزية والفعلية، يتجاذبها الوالي العثماني ورؤساء الجند والمماليك، فقد صارت مصر أيام المماليك ولاية عثمانية منذ انتصار سليم الأول العثماني على «طومان باي» المملوكي، وشنقه على باب زويله، وتركه مصلوبًا ثلاثة أيام، وكادت تنحصر وظيفة الوالي العثماني في جمع المال لنفسه ولدولة الخلافة، بينما كانت السلطة الفعلية في يد المماليك(١).

وُلِدَ العطار وقد استجمع «علي بك الكبير» القائد المملوكي السلطة في يده بعد أنْ أعتقه سيدُهُ من العبودية قبل أن تبلغ سِنُّهُ العشرين، وبعد أن اشترك في كل الدسائس التي كانت تهدف إلى تولية الحكام أو عزلهم بعد موت سيده سنة ١٧٥٧م، ولما استوى أمره طرد الباشا العثماني، ورفض الجزية المعتادة، وأمر بسك العملة باسمه، وأعلن استقلال مصر عن دولة الخلافة العثمانية في سنة ١١٨٣هـ = ١٧٦٩م، أي قبل ولادة العطار بنحو عامين، وليس ـ كما أشيع ـ أنَّ «محمد علي» هو الذي أعلن استقلال مصر، بل الحق أن استقلالها كان على يد «علي بك الكبير»، أي قبل تولي محمد علي الحكم بنحو أربعين سنة(٢).

وبعد موت «علي بك الكبير» لم تتبدل الحال كثيرًا، إذ تولى بعده مملوكه «محمد بك أبو الذهب»، الذي خان سيده في دمشق، وانقلب عليه حتى هلك

(١) ينظر: مصر في القرن الثامن عشر: محمود الشرقاوي، (٣٧/٢).
(٢) ينظر: ثلاثة أعوام في مصر، (٨٢/١: ٨٤)، ومصر في القرن الثامن عشر: محمود الشرقاوي، (٧٠/٢)

سنة ١١٨٩هـ في عكا ليُحمل إلى مصر، ويدفن بعد ستة عشر يومًا والرائحة تفوح منه، ثم تقاسم السلطة «مراد بك» و«إبراهيم بك»، واستمر حكمهما أكثر من عشرين سنة، وخرب فيها الإقليم المصري، يقول الجبرتي عن مراد: «وهو كان من أعظم الأسباب في خراب الإقليم المصري بما تجدَّد منه ومن مماليكه وأتباعه من الجور والتهور ومسامحته لهم»[١].

وفي كل ذلك قلَّت سلطة العثمانيين، وإن كان للباب العالي في مصر مَنْ يُمثّله بيد أنه محصورٌ في قصره، عُرضة للخلع والنفي والطرد، كل ما في الأمر أنْ يُرسَل إليه المماليك ضابطًا أسود الرداء، يقول له: انزل يا باشا، وظلت سلطة الوالي التركي في التلاشي إلى أن استقر إبراهيم باشا شيخًا للبلد، وما زال في المشيخة حتى جاء نابليون بونابرت على رأس الحملة الفرنسية إلى مصر سنة ١٧٩٨م[٢].

ومن أهم ما يلاحظ في هذا العصر، هو التنافس في انتهاب خيرات مصر وثرواتها بفرض الضرائب والإتاوات على كل أحد أيًّا كان، سواء كان فلاحًا أو تاجرًا أو عاطلًا، وسواء كان مسلمًا أو يهوديًا أو نصرانيًا.

انظر إلى السطان سليم الأول العثماني الذي نَقَلَ إلى تركيا الذخائر والنفائس والكتب التي كانت في منازل السلاطين والأمراء والمساجد والزوايا حتى أعمدة الرخام، «وبلغ ما أخذه من النفائس حمولة ألف بعير، غير ما سلبه رجاله وجنوده، ثم أمر بجمع رؤوساء الصناعات التي اشتهرت بمصر والمبرزين فيها من كل طائفة فكانوا ألف صانع ورئيس»[٣]، يؤكد ذلك الجبرتي

(١) تاريخ عجائب الآثار للجبرتي، (٤٥٠/٢).
(٢) ينظر: ثلاثة أعوام في مصر، (١٠٨/١)، ونوابغ الفكر العربي (حسن العطار): لمحمد عبد الغني حسن، ص ٨.
(٣) مصر في القرن الثامن عشر: محمود الشرقاوي، (١٠/٢).

بقوله: « وأخذ صحبته ما انتقاه من أرباب الصنائع التي لم توجد في بلاده بحيث أنه فُقِدَ من مصر نيف وخمسون صنعة»(١).

وانظر إلى الفرنسيين الذين انقاد لهم المصريون بعض الانقياد لأمرين: أولهما: عجز المصريين عن مقاومتهم بسبب هروب المماليك. ثانيهما: خداع الفرنسيين، فإنهم لما قدموا أعلنوا أنهم ليسوا نصارى؛ لأنهم يقولون بأن الله واحد، والنصارى يقولون بالتثليث، ولم يأتوا إلا لطرد المماليك الظلمة؛ لأنهم نهبوا أموالهم وأموال تجَّارهم، يقول شيخ الأزهر إبان الاحتلال الفرنسي/ عبد الله الشرقاوي: «لكن لما دخلوا لم يقتصروا على نهب أموال المماليك، بل نهبوا الرعايا، وقتلوا جملةً من الناس... وهتكوا بعض الأعراض في مصر وقراها، فإن كل قرية حاربتهم نهبوا أموالها، وقتلوا رجالها، وأخذوا نساءها، وقتلوا من علماء مصر نحو ثلاثة عشر عالمًا، ودخلوا بخيولهم الجامع الأزهر، ومكثوا فيه يومًا وبعض الليلة الثانية، وقتلوا فيه بعض علمائه، ونهبوا منه أموالًا كثيرة»(٢).

وبالجملة، فالعطار وُلِدَ في وقتٍ كانت تسوده التقلُّبات والنزاعات بين الوالي العثماني ذي السلطة الصورية، والمماليك أرباب السلطة الفعلية حتى جاء الاحتلال الفرنسي والعطار في الثانية والثلاثين من عمره ليهرب إلى أسيوط، ثم يعود فيستفيد من علومهم، ثم يسافر إلى تركيا والشام وفلسطين ليعود إلى مصر سنة ١٢٢٨هـ بعد غربة دامت أكثر من عشر سنوات.

(١) تاريخ عجائب الآثار للجبرتي، (٣٧/١).

(٢) تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطيين: العلامة/ عبد الله الشرقاوي، (ص ٥٥).

## الحالة الاقتصادية

الحالة الإجمالية لها هي الاضطراب والفقر، وعنها أسجل ملاحظتين:

**أولهما:** أنه في بعض البلدان يُفهم من العلاقة بين الحاكم والمحكوم أحوال المعيشة، فحبُّ الشعبِ للحاكم أمارة على العيش الهنيء، وعدم الاكتراث به أمارة على ضيق المعيشة؛ ولهذا تعجَّبَ بعضُ التجارِ الأوربيين من عدم تأسُّف المصريين على هلاك «علي بك الكبير» في حين أن هؤلاء التجار وجدوا منه الحلم والعدل، ويرون هذا نكرانًا للجميل، ويفسر الرحالة «فولني» موقف المصريين بأنه ليس أمرًا غريبًا ولا نكرانًا للجميل؛ لأنَّ موقفَ المصريين تمليه عليهم أحوال معاشهم، يقول: «ماذا يُعنى شعب مصر أن يفتح «عليٌّ» الصعيد أو مكة أو سوريا إذا لم تكن هذه الفتوحات عاملة على تحسين حاله؟! وقد حدث في الواقع ما أفضى بالبلاد إلى أسوأ مآل»[١].

**ثانيهما:** أنَّ الإتاوات والضرائب فُرِضَت على أرباب الحرف والصنائع والفلاحين، مما أثقل كاهل المصريين، ولك أن ترى حال الفلاحيين في كلام الرحالة «فولني»، وهو شاهد عيان، يقول: «والفلاحون آلات مأجورة لا يُترك لهم للمعاش إلا ما يقيهم الموت، وما يحصدونه من أرز وحنطة يذهب إلى أسيادهم، فيما يحتفظون الذرة ويصنعون منها خبزًا بلا خمير، لا طعم له إذا كان باردًا، يختبزونه في ملة، وقدها من روث الجواميس والبقر، فهذا الخبز مضافًا إلى الماء والبصل النيء قوتهم طوال العام، ويُحسبون سعداء إذا تخلل طعامهم هذا شيء من العسل والجبن واللبن الرائب والتمر. أما اللحم والشحم فمادتان يرغبون فيهما كثيرًا، ولكن لا أثر لهما في مآكلهم في غير الأعياد الكبرى، وفي بيوت أهل السعة منهم»[٢].

(١) ثلاثة أعوام في مصر، (٩٥/١).
(٢) المرجع السابق، (١٢٤/١).

وإن نظرنا إلى حال المصريين مثلًا أيام مراد بك وإبراهيم بك سنة ١٢٠٧هـ، وكانت سن العطار حينئذ بلغت السابعة والعشرين، نجد أن الناس كانوا يبكون من شدة الجوع حتى أكلوا لحوم الأطفال، يؤرخ ذلك الجبرتي وهو يستهل محرم سنة ١٢٠٧هـ بقوله: «استهل المحرم بيوم الخميس، والأمر في شدة من الغلاء، وتتابع المظالم، وخراب البلاد، وشتات أهلها، وانتشارهم بالمدينة حتى ملؤا الأسواق والأزقة رجالًا ونساء وأطفالا يبكون ويصيحون ليلًا ونهارًا من الجوع، ويموت من الناس في كل يوم جملة كثيرة من الجوع .... وكَثُرَ الصياحُ والعويلُ ليلًا ونهارًا، فلا تكاد تقع الأرجل إلا على خلائق مطروحين بالأزقة، وإذا وقع حمار وفرس تزاحموا عليه وأكلوه نيًّا ولو كان منتنا حتى صاروا يأكلون الأطفال»(١).

وليس هذا أمرًا وهميًا، بل تجد مثله ذكره القزويني في كتابه: «تاريخ المجاعات بمصر»، وذلك حين انخفض منسوب مياه نهر النيل.

## الحياة الفكرية

بمعرفة شيوخ العطار نقف على صورة إجمالية على حالة الفكر في ذلك العصر، وأشهر أشياخه: الشيخ الصبان، والشيخ محمد عرفة الدسوقي، والشيخ أحمد السُّجاعي، والشيخ أحمد العروسي، والشيخ عبد الله الشرقاوي، والشيخ محمد الشنواني، والشيخ محمد الأمير، والشيخ أحمد برغوث، والشيخ البيلي، وغيرهم.

فهؤلاء أئمة عظام في المعقول والمنقول، درَسُوا الحواشي ودرَّسُوها، وتولَّى بعضهم مشيخة الأزهر، وإن نظرنا إلى آثار بعضهم نجد أن الصبان مثلًا له حاشية على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، وله حاشية على الشرح الصغير للملوي على السلم في علم المنطق، وقد تعقبها تلميذه العطار في

(١) تاريخ عجائب الآثار للجبرتي، (١٤٣/٢).

حاشيته على السلم في أكثر من موضع، وللعطار حاشيتان على الجواهر المنتظمات لشيخه السُّجَاعي في علم المقولات، ولشيخه الدسوقي حاشية على شرح السنوسي لأم البراهين، وحاشية على شرح الخبيصي لمتن التهذيب للسعد التفتازاني، وللعطار حاشية كذلك على شرح الخبيصي، وللشيخ الأمير حاشية دقيقة على شرح عبد السلام اللقاني لجوهرة التوحيد، وللشيخ البيلي تقريرات نفسية ينقل عنها العلماء في كتب آداب البحث والمناظرة .... إلخ.

ومع هذه القوة العلمية في علوم المقاصد والوسائل، فإن العطار يرى أنَّ الأزهريين في حالة ركود معرفية، وأنهم جمدوا على ما هم عليه، واقتصر أمرهم على النقل عن الأسلاف، دون أن تطمح نفوسهم إلى مراعاة المستجدات المعرفية، ويرى أنَّ نسبتنا إلى المتقدّمين صارت «كنسبة عامة زمانهم، فإن قصارى أمرنا النقل عنهم بدون أن نخترع شيئا من عند أنفسنا، وليتنا وصلنا إلى هذه المرتبة بل اقتصرنا على النظر في كتب محصورة ألَّفها المتأخرون المستمِدُّون من كلامهم، نُكرّرها طول العمر، ولا تطمح نفوسنا إلى النظر في غيرها حتى كأن العلم انحصر في هذه الكتب، فَلَزِمَ من ذلك أنه إذا وَرَدَ علينا سؤال من غوامض علم الكلام تخلَّصنا عنه بأن هذا كلام الفلاسفة ولا ننظر فيه، أو مسألة أصولية قلنا: لم نَرَهَا في جمع الجوامع، فلا أصل لها، أو نكتة أدبية قلنا: هذا من علوم أهل البَطَالَة، وهكذا فصار العذر أقبح من الذنب"[١].

وهنا كان سر تميُّز العطار عن غيره، وهو أنه بعد أن استحكمت نفسه في العلوم الأزهرية، وتلقَّاها على يد الأئمة الكبار، سافر إلى تركيا والشام... إلخ، وهناك درس علومًا أهملها الأزهريون، ونشأ عن هذا الشغف العلمي أنه كتب شرحًا في الطب على نزهة الأذهان لدواد الأنطاكي أسماه «راحة الأبدان في

(١) حاشية العطار على جمع الجوامع، (٢٤٧/٢).

نزهة الأذهان»، يقع في (٢٥٤) لوحة بخطه، ولو أنه طُبِعَ لوقع في أربعة مجلدات كبار أو يزيد، وكَتَبَ شرحين على الرسالة الولدية في علم صناعة التوجيه، وكَتَبَ حاشيتين على مقولات شيخه السُّجاعي، وحاشية على مقولات شيخه البُلَيْدِي، وهي أعظم حواشيه في علم المقولات.

وهنا أُنبِّهُ إلى أمر، وهو أنَّ مهمة الأزهر الأُولى هي حفظ الدين الإسلامي، وليس مسؤولًا عن الحالة المعرفية للبلاد المصرية، أقول ذلك لأن بعض الباحثين ينسب إلى الأزهر التخلف المعرفي في البلاد المصرية، ويستدل على ذلك بأن الأزهريين اكتفوا بالدعاء أمام ضرب الاحتلال الفرنسي للأزهر بالمدافع، يقول الجبرتي عن الفرنسسين: «وتعمدوا بالخصوص الجامع الأزهر، وجروا عليه المدافع والقنبر، وكذلك ما جاوره من أماكن المحاربين كسوق الغورية والفحامين، فلما سقط عليهم ذلك ورأوه، ولم يكونوا في عمرهم عاينوه نادوا: (يا سلام من هذه الآلام، يا خفيَّ الألطافِ نجّنا مما نخاف)، وهربوا من كل سوق ودخلوا في الشقوق»[(١)].

ومقاومة المدافع الفرنسية إنما هي مهمة السلطة الحاكمة، لا مهمة العلماء العاكفين على الكتب النظرية، والأزهر يُسأل عن تقصيره في العلوم الإسلامية، لا عن عدم قدرته على مقاومة المدافع الحربية، فالأمر كله للسلطة الحاكمة، فبها يزدهر العلم، وبها يضعف، ما ذنب الأزهر في «أن محمد علي بعد عشر سنوات من خروج الفرنسيين أراد أن يحفظ سجلات للضرائب، فوضع نظامًا يقضي بأن تكتب باللغة العبرية؛ لأن معظم كُتَّابها كانوا من اليهود، وهم الذين يجيدون الحساب والتدوين»[(٢)] ؟! فالمشكلة مشكلة دولة، لا مشكلة أزهر.

(١) تاريخ عجائب الآثار للجبرتي، (٢/٢٢٠).
(٢) مقدمات في مشاريع البعث الحضاري: سيد دسوقي حسن، (ص ٥٧).

على أنَّ مصر لم تخل إبان الحملة الفرنسية من العلماء المتقنين للعلوم الطبيعية والتجريبية فضلًا عن العقلية، فهذا الشيخ حسن الجبرتي، والد المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي، أَتْقَنَ الفلكَ والهندسة والحساب والجغرافية، وأذعن له أهل المعرفة بالطاعة، وكان يُدرِّسُ في الأزهر علوم الحكمة والهيئة والهندسة والتوقيت، وهو آخر مَنْ درَّسها فيه(١)، وهذا الشيخ يوسف الحِفْنِي كانت له حاشية شرح ملا حنفي في علم آداب البحث والمناظرة، وهذا الصبان شيخ العطار، كانت له حاشية كذلك على شرح ملا حنفي.

وإن سألت عن السبب في ضعف الأزهر آنذاك، وعدم اكتراثه بهذه العلوم المعرفية، فالجواب هو أنَّ مِن أهم الأسباب في ذلك هو أنَّ «محمد علي» استولى على أوقاف الجوامع، وبأوقاف الجوامع كان يتلقى معظم الطلبة الغرباء في الأزهر الطعام والمال، وكذلك كان سكان القاهرة يتلقون إعانات مشابهة لذلك، يقول أحد شهود العيان آنئذ عن طلاب الأزهر وسكان القاهرة: «ولكهنم لا يتمتعون اليوم بمثل هذه الإعانات إلا خلال شهر رمضان؛ لأنَّ باشا مصر الحالي وضع يده على كل الأراضي المزروعة التي تمتلكها الجوامع، فَفَقَدَ جامع الأزهر الكبير بذلك الجزء الأكبر من ممتلكاته»(٢)، وقلَّ عدد الطلاب في الأزهر، يقول شاهد العيان كذلك: «عدد الطلاب الذين لا يخصص لهم رواق تقلَّص بنسبة كبيرة منذ مصادرة الأراضي التابعة للأزهر»(٣).

والعطار نفسه يشير إلى ذلك سنة ١٢٤٦هـ أي قبل موته بأربع سنوات

(١) ينظر: تاريخ عجائب الآثار للجبرتي، (٤٥٢/١)، ومصر في القرن الثامن عشر، (٦/١).

(٢) عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم: إدوارد وليم لاين، ترجمة: سهير دسوم، ص ٢١٤، وينظر: مقدمات في مشاريع البعث الحضاري: سيد دسوقي حسن، ص ٦١.

(٣) عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم: إدوارد وليم لاين، ص ٢١٦.

بقوله: «وقد كان لأهل العلم سابقًا أرزاق دائرة من أوقاف الأمراء والسلاطين وصدقات جارية من مياسر المسلمين تقوم بكفايتهم، وتدفع ضرورة حاجتهم، فلم تطمح نفوسهم بعد ذلك إلى فضول العيش وارتكاب التهور في تحصيلها والطيش، فصرفوا أوقاتهم كلها في تحصيل العلوم، وساعدهم صفاء الوقت من الشوائب الشاغلة للعقول، والخطوب المزعجة للقلوب، فوصلوا في مدارك العلوم إلى حدٍّ لمن جاء بعدهم آية إعجاز، ولم يتيسر لهم إلى حقيقة الإحاطة به المجاز»(١).

فإنْ قلتَ: إنَّ محمد علي قد أنشأ نظامًا معرفيًا جديدًا. قلتُ: كان غرضه منه تخريج موظفين للوظائف الحكومية، ومن هنا نشأ في الأمة نظامين معرفيين: تعليم مدني، وتعليم ديني، «وصار لأبنائهما عقليتان مختلفتان اختلافًا كبيرًا، وكان ذلك من سوء حظ مصر والعالم الإسلامي والعربي عامة، وقد فطن رجال النهضة لهذه الازدواجية، من أمثال "رفاعة الطهطاوي"، فأخذ على "محمد علي" والأزهريين جميعًا إهمال تطوير الأزهر مقترحًا الجمع بين العلوم الدنيوية والعلوم الدينية(٢).

(١) حاشية العطار على شرح جمع الجوامع، (٢/ ٥٢٨).
(٢) في فكرنا الحديث والمعاصر: أ.د. حسن الشافعي، ص٥٧.

## المبحث الأول
## حياة الشيخ حسن العطار ونشأته

**نشأته**:

هو حسن بن محمد العطار، وُلِدَ بالقاهرة في نحو سنة ١١٨٠هـ = ١٧٦٦م، «وسمع من أهله أنه مغربي الأصل، وَرَدَ بعضُ أسلافِه مصرَ واستوطنها، وكان أبوه فقيرًا عطَّارًا... وكان يستصحبه إلى الدُّكَان، ويستخدمه في صغار شؤونه، ويُعلِّمه البيع والشراء، ولشدة ذكائه وحِدَّة فطنته كان يميل إلى التعلُّم، وتأخذه الغيرة عند رؤيته أترابه يترددون إلى المكاتب، فكان يختلف إلى الجامع الأزهر خِفية عن أبيه حتى قرأ القرآن في مدة يسيرة، فلما اطَّلع أبوه على ذلك اشتد سروره به، وتركه وشأنه، وساعده على طلب العلم، فجَدَّ الشيخ في التحصيل على كبار المشايخ»[(١)].

ولما قدم الفرنسيون إلى مصر دَاخَلَهُ الخوف ففَرَّ إلى أسيوط، ثم بعد أن حصل الأمن عاد إلى القاهرة مرة أخرى واتصل ببعض علماء الفرنسيين ينهل من علومهم، ويُعلِّمهم العربية، ثم سافر إلى بلاد الشام وتركيا وفلسطين، واستمر في غربته تلك ما يجاوز عشر سنوات ليعود إلى مصر سنة ١٢٢٨هـ بعلوم كثيرة، حتى تقلَّدَ مشيخةَ الأزهر بعد وفاة الشيخ أحمد الدمهوجي سنة ١٢٤٦هـ حتى توفي سنة ١٢٥٠هـ.

**شيوخه**:

تتلمذ لكثير من الأشياخ، أشهرهم: العلامة محمد الصبان، والشيخ أحمد بن يونس، والشيخ عبد الرحمن المغربي، والشيخ أحمد السُّجاعي، والشيخ أحمد

(١) الخطط الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة: علي باشا مبارك، ٣٨/٤، وينظر: الأعلام للزركلي، ٢٢٠/٢.

العروسي، والشيخ عبد الله الشرقاوي، والشيخ محمد الشنواني، والشيخ عبد الله سويدان وغير هؤلاء من السادة الشافعية، وأما من السادة المالكية: فالإمام الشيخ محمد الأمير، والشيخ محمد عرفة الدسوقي، والشيخ أحمد برغوث، والشيخ البيلي... وغيرهم.

**مؤلفاته**:

أَلَّفَ العطار في علوم الوسائل والمقاصد، حتى شملت مؤلفاته العلوم العقلية والنقلية والتجريبية، وعلوم الوسائل والمقاصد، وفيما يأتي سأذكر أشهرَ مؤلَّفاته، مشيرًا في الهامش إلى بيانات بعضها ليكون باعثا على تحقيقها مِنْ قِبَلِ الباحثين، لتخرج من عالم المخطوطات إلى عالم المطبوعات:

**في علم النحو:**

١. حاشية على مغني اللبيب لابن هشام.

٢. حاشية على نتائج الأفكار في شرح إظهار الأسرار للفاضل البركوي، يقول العلامة محمد العطار الدمشقي: «وهو كتاب في النحو دقيق جدًّا، يتداوله طلبة الروم»(١)، فرغ من تأليفه وهو في غربته سنة ١٢٢٢هـ(٢).

٣. حاشية على شرح الشيخ خالد الأزهري، المسمَّى: «موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب»، فرغ من تأليفها بالجامع الأزهر سنة ١٢٠٩هـ(٣).

٤. حاشية على شرح الأزهرية للشيخ خالد في علم النحو، أَلَّفها بالشام(٤).

٥. حاشية على شرح شيخه الأمير على الأزهرية(٥).

(١) أسانيد المصريين: الدكتور/ أسامة الأزهري، ص ٣٩٨.
(٢) مخطوط بالمكتبة السليمانية بتركيا، رقم: ١٤١٠، في ٦٧ ورقة، وهو نفيس جدًّا.
(٣) طُبع بدار الضياء بالكويت.
(٤) طُبعت بتحقيق العلامة أحمد التجاني.
(٥) مخطوط في الأزهرية: **نسخة أولى:** أرقام الحفظ: (٢٩١ نحو) ١٨٤٨، رسالة رقم: ٢، عدد الأوراق: ٥٦ – ٢٠٦، **ونسخة ثانية**: أرقام الحفظ: (٤٣٨٢ نحو) ٦٦٥٥٤ الأحناف، عدد الأوراق: ١٢٣، **ونسخة ثالثة**: أرقام الحفظ: (٤٣٨٣ نحو) ٦٦٥٥٥

٦. رسالة تتعلق بختم شرح الأزهري على الآجرومية، ويشير إليها في حاشيته على نتائج الأفكار بقوله: «في رسالتنا منوطة بخاتمة الأزهري، غالبها في هذه المسألة، لكنها مما جعلنا الدهر بالبعد عنها كبقية كتبنا ومسوداتنا، أسأل الله جمع الشمل بهم»[١].

٧. حاشية على لامية الأفعال لابن مالك[٢].

٨. هداية الأنام بما لـ «أم» أتى من الأحكام، منظومة في (٢٠) بيتًا[٣].

٩. منظومة في الفرق بين الجمع، واسم الجمع، واسم الجنس بأقسامه، تقع في (١٥) بيتًا[٤].

١٠. قصيدة في النحو من بحر الطويل[٥]، وقد شرحها العلامة هارون عبد الرازق، ثم ألف العلامة محمد بن حسين الخزرجي حاشية على شرح الشيخ هارون على منظومة العطار، وقام العلامة الشيخ حسن قويدر الخليلي بإنشاء

الأحناف، عدد الأوراق: ١٤٢، **ونسخة رابعة**: أرقام الحفظ: (٥٤٩٤ نحو) ٨٤٥٣٣ الأتراك، عدد الأوراق: ١٠٩، **ونسخة خامسة**: أرقام الحفظ: (٦٥٧٩ نحو) ٩٦٦١٢ المغاربة، عدد الأوراق: ١٠١، **ونسخة سادسة:** أرقام الحفظ: (٣٠٧٦ نحو) ٣٩٧٩٧ الصعايدة، رسالة رقم: ١، عدد الأوراق: ١٢٧.

(١) حاشية العطار على نتائج الأفكار (مخطوط)، ص ٤٠.

(٢) في الأزهرية منها ثمانية مخطوطات: **نسخة أولى**: أرقام الحفظ: (١١٩ صرف) ٨٧٥٦، عدد الأوراق: ٧٨، **ونسخة ثانية**: أرقام الحفظ: (٢٠٤ صرف) ١٥٩١١، رسالة رقم: ١، عدد الأوراق: ٨٢، و**نسخة ثالثة**: أرقام الحفظ: (١٤٤٧ صرف) ٩٧٤٢٣ المغاربة، عدد الأوراق: ٥٣، **ونسخة رابعة**: أرقام الحفظ: (١٧٠٩ صرف) ١٣٤٤٢٧ إسكندرية، عدد الأوراق: ١٤٤، **ونسخة خامسة**: أرقام الحفظ: (١٧١١ صرف) ١٣٤٤٢٩ إسكندرية، عدد الأوراق: ١١٥، **ونسخة سادسة**: أرقام الحفظ: (١٧١٢ صرف) ١٣٤٤٣٠ إسكندرية، عدد الأوراق: ١٠٠، **ونسخة سابعة**: أرقام الحفظ: (١٧١٦ صرف) ١٣٤٤٣٤ إسكندرية، عدد الأوراق: ١٠٠، **ونسخة ثامنة**: أرقام الحفظ: (١٧١٩ صرف) ١٣٤٤٣٧ إسكندرية، عدد الأوراق: ١٠١.

(٣) مخطوط بالأزهرية، رقم الحفظ: (٣٠٦١ منطق) ١٣٣٥٠٢ دمياط.

(٤) مخطوط بالأزهرية، رقم الحفظ: (٣٠٦١ منطق) ١٣٣٥٠٢ دمياط.

(٥) مخطوط بالأزهرية، أرقام الحفظ: (١٢٦٠ مجاميع) ١٦٢٦٨، رسالة رقم: ١٧، عدد الأوراق: ٥٦ – ٥٨، ونسخة ثانية: أرقام الحفظ: (٢٢٨٣ مجاميع) ١٣٢٩٠٧ دمياط، رسالة رقم: ١٣، عدد الأوراق: ٩٦ – ٩٧.

شرح آخر على منظومة النحو لشيخه الإمام حسن العطار.

**في علم البلاغة:**

١١. حاشية على الرسالة السمرقندية، فرغ منها سنة ١٢١٢هـ[١].

١٢. تعليقات على تعريب الرسالة الفارسية لعصام الدين في المجاز، وإليها أشار في حاشيته على نتائج الأفكار: «ولهذا الكلام تتمة في تعليقاتنا على تعريب الرسالة الفارسية»[٢].

**في علم الوضع:**

١٣. تقييدات على شرح العصام على الرسالة الوضع[٣].

١٤. منظومة في علم الوضع، في (٥٧) بيتًا[٤].

١٥. حاشية على منظومته السابقة في علم الوضع، ألَّفه بالشام[٥].

**في علم العروض والقوافي:**

١٦. حاشية على فتح رب البرية بشرح القصيدة الخزرجية لشيخ الإسلام زكريا الأنصاري.

**في علم أصول الفقه:**

١٧. حاشية على شرح المحلي على جمع الجوامع لتاج الدين السبكي، انتهى من الجزء الأول منه سنة ١٢٤٤هـ، ومن الجزء الثاني سنة ١٢٤٦هـ، وهي السنة التي تقلَّد فيها مشيخة الأزهر حتى توفي سنة ١٢٥٠هـ.

(١) طُبع بشركة المطبوعات العلمية بمصر سنة ١٣٢٧هـ، وهو متاح على الشبكة العنكبوتية.

(٢) حاشية العطار على نتائج الأفكار، ص ٥٢.

(٣) مخطوط بالأزهرية، أرقام الحفظ: (١٩٠ وضع) ٤٠٠٠٨ الصعايدة، رسالة رقم: ١، عدد الأوراق: ٧٤، ونسخة ثانية: أرقام الحفظ: (١٣١ وضع) ٤٨٥٤٦ الأمبابي، عدد الأوراق: ٧٢، ونسخة ثالثة: أرقام الحفظ: (٢٨٥ وضع) ٩٦٢٩٢ المغاربة، رسالة رقم: ٣، عدد الأوراق: ٦٣ – ١٨٢.

(٤) مخطوط بالأزهرية، أرقام الحفظ: (٢٧٣ وضع) ٩٦٢٨٠ المغاربة، رسالة رقم: ١.

(٥) مخطوط بالأزهرية، أرقام الحفظ: (٣٢٤ وضع) ١٣٠٤٧٨ طنطا، عدد الأوراق: ٢٢.

١٨. رسالة في الاجتهاد والتقليد.

**في علم المنطق:**

١٩. حاشية على السُّلَّم للعلامة الأخضري، وقد فرغ منها سنة ١٢٣٥هـ، وقد حقَّقها العبد الفقير، وطُبعت بمكتبة دار الإمام الرازي بالقاهرة.

٢٠. حاشية على المطلع لشيخ الإسلام زكريا الأنصاري شرح إيساغوجي في علم المنطق، وفرغ منها سنة ١٢٣٦هـ، يقول في خاتمتها: « وكنت قد شرعت في هذه الحاشية عند قراءتي للشرح بالجامع الأزهر، عام قدومي من السفر لبلاد الروم والشام، وقد استكملت في هذه السياحة عشرة أعوام، وكان قدومي بمصر عام ثمانية وعشرين ومائتين «١٢٢٨هـ»، فكتبت فيها حتى انتهيت لباب التناقض، ثم عاقت عوائق عن إكمالها، فبقيت هكذا في زوايا النسيان، حتى يسَّر الله لإقراء الشرح مرة ثانية، فحاولت فراغًا من الزمن، لِرَوْم إتمامها، وكثرة الشواغل تدافعني، وتكدير الوقت يمانعني، وكلما لاحت لي فرصة من الفراغ أشغلتها بالكتابة فيها، حتى تيسَّرَ إتمامها بعد صلاة العشاء، ليلة مولده ρ، وهي ليلة الاثنين، الثاني عشر من شهر ربيع الأول، سنة ست وثلاثين ومائتين وألف » [١].

٢١. حاشية على شرح الخبيصي على التهذيب للعلامة السعد التفتازاني، وقد فرغ منها سنة ١٢٤٠هـ.

**في علم آداب البحث:**

٢٢. حاشية صغرى على الرسالة الولدية للمرعشي المعروف بساجقلي زاده، ألَّفها بدمشق.

٢٣. حاشية كبرى على الرسالة الولدية للمرعشي، ألَّفها بمصر.

(١) حاشية العطار على شرح إيساغوجي، ص ١٠٥ وما بعدها.

٢٤. منظومة في آداب البحث في (٢٥) بيتًا[١].

٢٥. شرح منظومته في آداب البحث.

٢٦. حاشية على شرح ملا حنفي على آداب البحث للعضد، وهي أعظم حواشيه في هذا الفن، وآخِرِهَا تأليفًا له، حيث انتهى منها سنة (١٢٤٢هـ)، وقد حقَّقها العبد الفقير، وطُبعت بمكتبة دار الإمام الرازي بالقاهرة.

**في علم المقولات:**

٢٧. حاشية على مقولات البُلَيْدِي، وافق إتمامها سنة (١٢٣٤هـ)، وقد كتبها سنة (١٢٤٢هـ) وهو في نحو الثالثة والستين من عمره، وأتى فيها بغرائب النقول، وإذا أُطلقت الحاشية الكبرى تنصرف إليها، يقول في حاشيته على شرح جمع الجوامع عن المقولات العشر: «وقد أفردها العلماء بالتأليف، وأشبع القولَ فيها السيدُ البُلَيديُّ، ووضعنا عليه حاشيةً أشبعنا فيها القول جدًّا، وأتينا فيها بغرائب النقول، ولخص منها الشيخ أحمد السُّجاعي رسالةً زاد فيها بعض أشياء، ووضعنا عليها حاشيتين»[٢].

٢٨. حاشية كبرى على مقولات السُّجَاعي، كتبها بعد حاشيته على مقولات البليدي، وهي كالمدخل لحاشية العطار على مقولات البليدي.

٢٩. حاشية صغرى على مقولات السُّجَاعي، انتهى من كتابتها قبل وفاته بنحو ثلاثة أشهر، وهو في نحو السبعين من عمره.

٣٠. قلائد الدرر في نظم أقسام المقولات العشر، منظومة في (٤٥) بيتًا[٣].

(١) مخطوط بالأزهرية، أرقام الحفظ: (٢٧٣ وضع) ٩٦٢٨٠ المغاربة، رسالة رقم: ٢، وآخر رقم: ١٣٣٥٠٢.

(٢) حاشية العطار على شرح جمع الجوامع، (٢/ ٤٩٨).

(٣) مخطوط بالأزهرية، أرقام الحفظ: (٢٩٠٨ منطق) ١٢٩٩٠٤ طنطا، رسالة رقم: ٢، وآخر رقم: ١٣٣٥٠٢.

**في علم الكلام:**

٣١. رسالة في مبادئ علم الكلام، وقد أخرجها الفاضل الدكتور/ محمد رجب بمكتبة دار الإحسان بالقاهرة.

٣٢. رسالة عن الصفات، صرَّح بها في حاشيته على جمع الجوامع: ففي حديثه عن زيادة الصفات على الذات يقول: «ولنا في هذا المطلب رسالة مستقلة استوعبنا فيها أطراف الكلام»(١)، ويذكر الباعث له على كتابة هذه الرسالة بقوله: «وقد وَرَدَ علينا قبل التاريخ بعض من علماء بلغار، ومعه سؤال يتعلق بالصفات وما فيها من الخلاف، وفيه كلام وقع بين علماء تلك البلاد، فكتبتُ في شأن ذلك رسالة استوفيت فيها أطراف المسألة»(٢).

٣٣. رسالة عن جواب سؤال: هل العالم في الأزل مستحيل الوجود وقد وُجِدَ؟ وهي عن حدوث العالم، والفرق بين أزلية الإمكان وإمكان أزلية العالم، وقد أخرجها الفاضل/ مصطفى ثابت.

٣٤. رسالة هذان مسألتان من المسائل الأربعين التي صنفها الإمام فخر الدين الرازي في علم الكلام.

٣٥. هل الماهية مجعولة أم لا ؟ هكذا سماها العلامة العطار في حاشيته على السلم (ص ٢٤٥)، وقد طبعتها مكتبة دار الإحسان بالقاهرة، بعنوان: (رسالة في مجعولية الماهيات)، بتحقيق الدكتور/ محمد نصار، وذكر أنه وجد على غِلاف بعض المخطوطات تسميتها برسالة في خلق الأفعال، وقد ألفها سنة (١٢٢٨هـ).

٣٦. رسالة في جواب أسئلة لمصطفى البدري، وقد طبعتها مكتبة دار

(١) حاشية العطار على شرح جمع الجوامع (٣٧٢/١).
(٢) حاشية العطار على شرح جمع الجوامع (٢/ ٤٥٧).

الإحسان بالقاهرة بعنوان: «رسالة في مذهب الطبائعيين» مع رسالة مجعولية الماهيات، وقد ألفها سنة (١٢٢٨هـ).

٣٧. رسالة تحفة غريب الوطن في تحقيق نصرة الشيخ أبي الحسن، شرح فيها موضعًا من شرح خادمي زاده على الطريقة المحمدية، تعرَّض فيه لجانب الشيخ أبي الحسن الأشعري، فألف العطار هذه الرسالة، وزيَّف مقالة الشارح المذكور، وقد أشار – كما ذكر صاحب أسانيد المصريين – العطار لكتابه هذا في حاشيته على جمع الجوامع عند مسألة المؤثر في قدرة العبد، في قوله: «وطال نزاع الخصوم معنا في هذه المسألة وكنت وأنا ببلاد «روم أيلى» أطلعني بعض الأفاضل على كلام يتعلق بهذه المسألة ذكره الخادمي في «شرح الطريقة المحمدية»، فألفت هناك رسالة سميتها «تحفة غريب الوطن في تحقيق نصرة الشيخ أبي الحسن»، ثم توجهتُ إلى القسطنطينية، وأطلعتُ عليها شيخَ الإسلام إذ ذاك، وهو العلامة «عرب زاده»، فكتب عليها تقريظًا، ثم صحبتها معي عند توجهي لدمشق الشام، واجتمعت فيها بالعلامة العارف بالله الشيخ «عمر اليافي» شيخ طريقة الخلوتية، وكان ذا باع في فهم كلام الشيخ الأكبر سيدي «محيي الدين بن العربي» ، وله براعة تامة في الإنشاء والشعر، فقرظها أيضا، وهي باقية عندي الآن»[١].

**في علم الحديث:**

٣٨. حاشية على متن النخبة، ألَّفها بالشام[٢].

**في علم الطب:**

٣٩. منظومة في التشريح في (١٤٦) بيتًا.

٤٠. شرح منظومة التشريح، ألفها بالشام.

(١) حاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع، ٢/٢٢٣.
(٢) طُبعت بدار الإحسان بالقاهرة.

٤١. حاشية على شرح العلامة «بَحرَق الحضرمي» في شرح منظومته الطبية.

٤٢. راحة الأبدان في نزهة الأذهان، وهو شرحٌ لنزهة الأذهان في إصلاح الأبدان للحكيم داود الأنطاكي، فرغ من تبييضه سنة (١٢٢٨هـ) بعد عودته لمصر، وكان قد فرغ من تأليفه في دمشق في نحو ثلاثة أشهر مع عِظَم حجمه(١).

٤٣. ثلاث مقالات طبية في الكَيِّ والفصد.

٤٤. نبذة في علم الجراحة.

**في علم الهندسة:**

٤٥. حاشية على شرح أشكال التأسيس للقاضي زاده الرومي في علم الهندسة.

**في علم الفلك:**

٤٦. حاشية على رسالة تشريح الأفلاك للعلامة بهاء الدين محمد العاملي، أحال إليها في حاشيته على مقولات البليدي بقوله: «ولنا هنا كلام يُطلب مما كتبناه على رسالة تشريح الأفلاك في علم الهيئة، أسأل الله إتمامه»(٢).

٤٧. رسالة في كيفية العمل بالأَسْطُرْلاب (٣).

٤٨. الرَبعين المقنطر والمجيب والبسائط.

٤٩. رسالة في الرَّمل والزايِرْجَة(١).

(١) مخطوط بالأزهرية، أرقام الحفظ: (٨٥١ طب) ٩٨٥٧٤ المغاربة، عدد الأوراق: ٢٥٠.
(٢) حاشية العطار على مقولات البليدي، ص ١٧٨.
(٣) الأَسْطُرْلاب: جهاز فلكيّ ذو أشكال مختلفة، استعمله المتقدّمون في تعيين ارتفاعات الأجرام السَّماويَّة ومعرفة الوقت والجهات الأصليّة. معجم اللغة العربية المعاصرة: د. أحمد مختار وآخرون، ٩٣/١.

**في الشعر والمراسلات:**

٥٠. له ديوانٌ شعريٌّ، لكنه مفقود، ويُفهم من كلام الدكتور عبد العزيز الدسوقي في «مجلة الهلال» سنة ١٩٧٢ أنه كان مطبوعًا في ذلك الوقت؛ إذ يقول: «وعِشْتُ في ديوانه المطبوع عدة أيام»[٢]، وذكر الأستاذ محمود الشرقاوي أنَّ قطعة كبيرة من شعره طُبِعَتْ في المطبعة العثمانية بالقاهرة سنة ١٣٠٤هـ، وذكر فيها أنها بعض ما أنشأه، لا كله[٣]، ومن شعره ما نقله عنه الجبرتي، وعلي باشا مبارك، وإشارات خاطفة من العطار نفسه في بعض كتبه كحاشيته على السُّلَّم وعلى شرح الخبيصي.

٥١. الإنشاء والمراسلات[٤].

ومن كتبه ورسائل كذلك:

٥٢. رسالة «التدمير على إزمير» ألفها عندما أقام ببلدة إزمير.

٥٣. رسالة في حل لغز لبعض فضلاء الروم في لتبلون.

٥٤. رسالة «إيضاح ما في إبداع حكمة الحكيم في بيان بسم الله الرحمن

(١) الزايِرْجَة: على صورة دائرة عظيمة في داخلها دوائر متوازية للأفلاك والعناصر وللمكونات وللروحيات إلى غير ذلك من أصناف الكائنات والعلوم، وتستخدم للكشف عن المستقبل. تكملة المعاجم العربية: رينهارت بيتر، نقله إلى العربية وعلق عليه: محمَّد سَليم النعَيمي، وجمال الخياط، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، ط١، ١٩٧٩م، ٥/٢٧٤.

(٢) مجلة الهلال، العدد الثاني، السنة الثمانون، أول فبراير ١٩٧٢م، ١٦ ذو الحجة ١٣٩١هـ، ص ٨٧.

(٣) مصر في القرن الثامن عشر، الأستاذ/ محمود الشرقاوي، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٥م، ١/٥٠.

(٤) طُبِعَ بدار الطباعة العامرة بمصر سنة ١٢٧٧هـ في (٢٦٤) صفحة، منشور على الشبكة العنكبوتية، وهو كذلك في الأزهرية: أرقام الحفظ: (٩٣٥٦ أدب) ١٣١٨٣٨ دمياط، عدد الأوراق: ١١٩.

الرحيم»[١].

٥٥. رسالة في تحقيق الخلافة الإسلامية ومناقب الخلافة العثمانية[٢].

**تلاميذه**:

أشهرهم:

**١- رفاعة بك الطهطاوي:**

تخرج على شيخه العطار، ولما آنس العطار فيه الذكاء رفع أمره إلى محمد على باشا، فجعله إمامًا لأول بعثة علمية أرسلها إلى أروبا، فسافر معها إلى باريس سنة (١٢٤١هـ = ١٨٢٥م)، وعاضد رفاعة شيخه العطار على إنشاء جريدة «الوقائع المصرية، فسعيا لدى الجناب العالي سعيًا مشكورًا إلى أن حصلا منه على الإذن والمساعدة، فكانت أول جريدة عربية ظهرت تحت سماء الشرق سنة (١٢٤٨هـ = ١٨٣٢م)[٣].

**٢- حسن قويدر:**

هو الأديب حسن بن علي قويدر، ولد بمصر سنة (١٢٠٤هـ) من أسرة مغربية، تخرج على الشيخ العطار، والشيخ إبراهيم الباجوري، شرح منظومة شيخه العطار في النحو، معروفة بشرحها لدى طلبة الأزهر، لبى نداء ربه سنة

(١) مخطوط بالأزهرية، أرقام الحفظ: (٢٨٥ وضع) ٩٦٢٩٢ المغاربة، رسالة رقم: ٤.

(٢) طُبعت بدار الإحسان بالقاهرة، وينظر: وراحة الأبدان في نزهة الأذهان للعطار (مخطوط: ٥/ب)، وحلية البشر في تاريخ القرن الثالث العشر للبيطار (٤٨٩/١: ٤٩٢)، وأسانيد المصريين للدكتور أسامة الأزهري ( ٣٩٤: ٤٠٠)، وتحقيق الدكتور/ عرفة النادي للمطلع شرح إيساغوجي مع حاشية الملوي والعطار (ص٦٥: ٦٩)، وفهرس الخزانة التيمورية، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٤٨ (٢٠٧/٣)، والجذور الإسلامية للرأسمالية (مصر ١٧٦٠ – ١٨٧٠) لبيتر جران (٣٤١: ٣٥٣).

(٣) ينظر: أعيان البيان: حسن السندوبي، ص ٩١.

(١٢٦٢هـ) [١].

**٣- محمد شهاب الدين:**

هو محمد بن إسماعيل، الشهير بشهاب الدين، ولد بمكة سنة (١٢١٠هـ = ١٨٧٦م)، ثم التحق بالأزهر، فدرس على مشايخه، واختص منهم بالشيخ حسن العطار والشخ الروسي، وكان ميالًا إلى الأدب، وكان من محرِّري الوقائع المصرية مع شيخه العطار، وولي رئاسة تحريرها بعد إسناد مشيخة الأزهر للشيخ العطار، توفي سنة (١٢٧٤هـ = ١٨٥٧م)، ومن مؤلفاته: سفينة الملك ونفيسة الفلك، من أجل الكتب في فن الموسيقى والأغاني، وله رسالة في التوحيد [٢].

**٤- محمد عياد الطنطاوي:**

وُلِدَ في قرية «محلة مرحوم» بطنطا عام ١٨١٠م، وتخرج في الأزهر على يد الشيخ الباجوري، والشيخ حسن العطار، وسافر إلى بطرسبورج لتعليم اللغة العربية بدعوة رسمية من القيصر الروسي عام ١٨٤٠م، ورفضت الجامعة أي بديل لهذا الأستاذ حتى وفاته ١٨٦١م، وكانت تصحبه زوجته التي توفيت قبله، وتركت له ولدهما أحمد الذي إليه آل معاش والده الذي قررته بسخاء جامعة بطرسبورج[٣].

وغيرهم كثير كالعلامة حسن البيطار، والعلامة إبراهيم السقا خطيب الأزهر.

**وفاته**:

توفي العلامة العطار سنة ١٢٥٠هـ، وبعد موته تقلَّد مشيخة الأزهر الشيخ حسن القويسني، ومن اللطائف أن كلًّا منهما اسمه حسن[٤].

(١) ينظر: المرجع السابق، ص ١٧.

(٢) ينظر: المرجع السابق، ص ٣٥: ٣٧.

(٣) ينظر: حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوي: كراتشكوفسكي، (ص ١٩ : ٢٤).

(٤) ينظر: الخطط الجديدة: علي باشا مبارك، ٤٠/٤.

## المبحث الثاني
## الصفات الشخصية والعلمية للعطار

### ١- تحدِّي الشواغل والموانع:

ما بَرِحَ العلامةُ العطارُ القَلَمَ والمذاكرةَ والمباحثةَ حتى لقي ربَّهُ، ولك أن تعلم أنه في ظل تقلُّدِه لمشيخة الأزهر، وسِنُّهُ سبعون أو يزيد ينتهي من تبييض حاشيته الصغرى على مقولات شيخه السُّجَاعي، وذلك في شهر رجب سنة (١٢٥٠هـ)، يقول: «ومن حسن الاتفاق أنْ وَافَقَ استراحة القلم من الجري في ميدان الصحف أذان عصر يوم السبت، الثاني من شهر رجب، سنة ألف ومائتين وخمسين، بمنزلي بدرب الحمام بخط المشهد الحسيني»[(١)]، وبعدها بثلاثة أشهر انتقل إلى جوار ربه.

وينقُلُ علي باشا مبارك عن الشيخ محمد شهاب الشاعر ـ تلميذ العطار ـ أنه كان يقول: «إن الشيخ العطار كان آيةً في حِدَّة النظر وفي شِدَّة الذكاء، ولقد كان يزورنا ليلًا في بعض الأحيان، فيتناول الكتاب الدقيق الخط الذي تعسُرُ قراءته في وَضَحِ النهارِ، فيقرأ فيه على نور السِّرَاج وهو في موضعه، وربما استعار مني الكتاب في مجلدين فلا يلبث عنده إلا الأسبوع أو الأسبوعين، ويعيده إليَّ، وقد استوفى قراءته، وكتب في طُرَره على كثيرٍ من مواضعه»[(٢)].

كان العطارُ راكبًا لظهور العوائق، مع أنه تعرَّض لما يُنغِصُّ حياتَهُ، ويُكَدِّرُ صفاءَهُ؛ حيث فتتت كبدَهُ مرارةُ الغربةِ، وضيقُ العيشِ، وحزنُ القلبِ؛ حيث فرَّ هاربًا من الفرنسيين إلى صعيد مصر، واغترب فذهب إلى بلاد ألبانيا وتركيا

(١) حاشية العطار الصغرى على مقولات السجاعي، ص ٢٨٥.
(٢) الخطط الجديدة: علي باشا مبارك، ٤/٤٠.

والشام والحجاز، وترى هذا العذاب الذي كابده، والْتَظَى بنارِهِ وراء كَلِمِهِ التي ابتدأها بالقَسَم بأنه ما سطَّر هذه الكلمات إلا والدموع تنسال من مُقْلَتيه، والقَسَم لا يكونُ إلا لأمرٍ عظيمٍ، ومن النادر أن يقسم العلامة العطار، وأتركك أيها القارئ وفؤادَك أمام قوله الذي سطَّره في غربته وهو في نحو الثالثة والأربعين من عمره: «وبالله أقسم ما سَطَّرتُ سطرًا إلا ومُقْلَتِي عَبْرَى، وكبدى بنار التحزن حرَّا، ومعيشتي بدار الغُرْبة غُبْرًا، وأنَّى لي بالخوض في لُجَّةِ هذا الكتاب الذي أعجَزَ بدقته وغموضه فحولُ الطلابِ؟! والفكرُ قد فَسَدَ، وقد وَهَنَتْ القُوَى والجِلْدُ، وعُدِمُ الخليلُ والصاحبُ، وسُدَّ في وجهِ حيلتي كُلُّ لاحبٍ، وجاءت حوادثُ الدَّهْرِ تترى... وإلى الله المُشْتَكى مِن تقنُّعِ وجوه المطالب، وتعسُّرِ حصول المآرب، وانفرادي عن كلِّ أنيس، وخُلُوِّ مكاني من زاين وجليس، أسامِرُ في الدُّجَا نجومَهُ الثواقب، وأناجي في النهار جدارن بيتي المحيطة بي من كل جانب، مع حرمان لذة الأمن والأمان، وترادف أخبار الإساءة والأحزان»(١).

وألَّف وهو في غربته بدمشق «راحة الأبدان في نزهة الأذهان» في نحو ثلاثة أشهر، وهو مخطوط نفيس في الطب يقع في (٢٥٢) لوحة، ولو طُبِعَ الآن لخرج في نحو أربعة مجلدات أو أكثر، يقول: «هذا ما يسَّر الله به من شرح هذه الرسالة مع العِجَالة، وإني لمُعْترفٌ بالقصور، فقد زانها الواقِفُ عليها، فلقد ألَّفْتُها في نحو ثلاثة أشهر وأنا بدمشق أُكابِدُ الغربةَ وبِعَادَ الأحبة، وكان جُلُّ تأليفي ليلًا»(٢).

وفي نهاية مقدمة حاشيته على «الرسالة الولدية الصغرى» يقول: «ثم إنك أيها الناظر في هذه الحاشية، إذا رأيتَ فيها خللًا أو فسادًا فلا تُبادِرْ باللوم

(١) حاشية العطار على نتائج الأفكار (مخطوط)، ١٣٠/أ.
(٢) راحة الأبدان في نزهة الأذهان للعطار (مخطوط)، ٢٥١.

والاعتراض، فإني كتبتُها والذهنُ كليلٌ، والخاطِرُ عليلٌ بما دهَمَني من حوادث الاغتراب، والتفجُّع بمفارقة الأحباب، جَمَعَ اللهُ شملي بما أُحِبُّ، وباعَدَ بيني وبين ما أكره، ورزقني حسن الختام، وحشرني في زمرة نبيه عليه أفضل الصلاة والسلام»[١].

ويقول في طالعة حاشيته على الأزهرية: «هذه حواشٍ كنتُ جَمَعْتُهَا على شرح الأزهرية في علم النحو وقت قراءتي لذلك الكتاب بالجامع الأزهر، ثم شرعت في نقلها من المسودة، فدَهِمَ مصرَ ما دهمها من حادثة الكفرة الفرنسيس، فخرجت فارًّا من مصر إلى البلاد الرومية مستصحبًا للمسودة وغيرها من بعض كتبي، فأقمت بالبلاد الرومية مدة طويلة، ثم توجهت إلى دمشق الشام....»[٢]، والمرء لا يأخذ معه في فراره إلا ما تتعلق به نفسه، وذاك للعطار هو كتبه، فَكُتُبُهُ كأبنائه أو أشد.

ويشير كلُّ ذلك إلى ثلاثة أمور:

**الأول:** أن العطار لم يكن رخيَّ البال، هنيء العيش، بل تغرَّب وذاق مرارة الغربة، وتفجَّع بمفارقة الأحباب، ولم يعقه ذلك عن ملازمة العلم تعلُّمًا وتعليمًا وتأليفًا، حتى في أشد الأوقات.

**الثاني:** الرُّقِي الأدبي، ويغرس ذلك في نفس الطالب، وكأنه يخاطبه بقوله: لقد بَذَلْتُ لك ما في وسعي، رغم تكدُّرِ الذهن، فإنْ رأيتَ خطأً، فلا تسلك طريق اللوم والاعتراض، فإن الكمال لله وحده، وهذا الملمح الأدبي يبدو لائحًا في الحواشي والتقريرات، يقول المحشِّي حالة اعتراضه مثلًا: «والأَوْلى كذا»، «والأظهر كذا»، وفرقٌ بين قولك: «والأَوْلى كذا»، وقولِك: «وهذا خطأ»، «وهذا جهل»، وحين قال

(١) حاشية العطار على الرسالة الولدية، ص ٧٨.
(٢) حاشية العطار على الأزهرية، ص ١١.

منلا عمر: «والإله مأخوذ من أَلَه بفتح اللام إذا عبد، بمعنى تعبد، أي: اتخذ غيره عبدًا»، نقده العطار بقوله: «فلم أره لغيره، وهو مستبعدٌ جدًّا، وخلاف ما صرح به أهل اللغة»[١]، تأمَّل سمُوَّ قولِه: «وهو مستبعدٌ جدًّا»، نقدٌ وأدبٌ، وهكذا يلازِمُ الأدبُ الأعالي والأفاضل في البحثيات كما يُلازِمها في السلوكيات.

**الثالث:** استحضاراه لعظمة الله ورسوله التي تفارقه في تحقيقاته وتحريراته بكثرة دعائه بحسن الختام، والحشرِ في زُمْرَةِ مِفْتَاح بابِ رحمةِ اللهِ محمدٍ ﷺ .

## ٢- صحبة النابهين:

من الأمور الصانعة لشخصية العلامة العطار مصاحبة النابهين سواء كانوا شيوخًا أم أقرانًا أم طلابًا، من ذلك أنه لازَمَ صديقَهُ محمدًا العطار الدمشقي أثناء إقامته بدمشق، فتدارسَا معًا العلوم الطبية، يشير إلى ذلك في نهاية كتابه راحة الأبدان بقوله: «وكان جلُّ تأليفي ليلًا، ومعي رفيق لي من فضلاء دمشق الشام مُشتغِلٌ أيضًا بشرحٍ قانونيٍّ، ولقد شرعنا معًا، وختمنَا معًا، إلا أنَّ شرحَهُ أقلُّ من شرحي هذا حجمًا، بل هو مقدارُ نصفِهِ»[٢].

وبعد عودته إلى مصر سنة (١٢٢٨هـ) قرَّب منه بعضَ الطلابِ الأزهريين النابهين، لمدارسة بعض العلوم العقلية ودقائقها، يقول: «وكنت بعد أوبتي من الرحلة التي قطعت فيها زمن شبابي، وعودي لمتعة سكني وأحبابي، تشاركت مع جماعة من أذكياء الطلاب الأزهريين في كتب، منها: مقولات السيد البُلَيْدي»[٣]، وهو أعظم حواشي العطار في علم المقولات، يليه حاشيته الكبرى والصغرى على مقولات شيخه السُّجَاعي.

(١) حاشية العطار على الرسالة الولدية، ص ٩٠.
(٢) راحة الأبدان في نزهة الأذهان (مخطوط)، ٢٥١.
(٣) حاشية العطار الصغرى على مقولات السجاعي، ص ٢٨٥.

ولما نزلَ الطاعونُ بمصر في حدود سنة (١٢٣٩هـ) ومات من أهل العلم جماعةٌ، ومَرِضَ بعضُهُم، وفرَّ بعضٌ آخر إلى بلاده، وصار مَن بقي ما بين عائد مريض، ومشيع جنازة، ومشغول بخدمة من مرض عنده، قلَّ عدد الطلاب الأذكياء الذين كانوا يحضرون درس العطار في شرح الخبيصي على متن تهذيب السعد التفتازاني في علم المنطق، يقول العطار: «وكان معنا في ابتداء إقراء الكتاب جماعة كثيرة من أذكياء الطلاب قلوا جدًا، وصارت أفكارهم لذلك الحادث غير قابلة للبحث في غوامض المسائل المحتاجة لصفاء الفكر، وعدم شغل البال»(١).

وبمصاحبة النابهين تحصُلُ المباحثةُ التي هي من أهم شروط تعلُّم العلوم وتعليمها، فلكي يستحكِمَ العِلْمُ في نفس الطالب لا بدَّ من شروطٍ، منها: أن يذاكِرَ الدرسَ قبل حضور الدرس، ثم الإنصات الجيد أثناء حضوره، ثم الفهم والحفظ والمباحثة بعد حضوره، وتحصل المباحثة بأن يختار نابهًا من أقرانه ويتدراسا معًا الدرسَ الذي حضراه، فإن لم يجد مَن يُباحثه فليُباحِث نفسَهُ، وبالمداومة على ذلك يرسُخُ العلمُ في نفس الطالب.

وظلت المباحثةُ ملازمةً للعلامة العطار طيلة حياته، فبعد أنْ كَتَبَ حاشيته الكبرى على مقولات السيد البُلَيْدي، وحاشية على مقولات السُّجاعي ظهر له ما دفعه إلى أن يكتب حاشيةً صغرى على مقولات السُّجَاعي، يقول: «وكان يظهر لي بعد المكالمة مع الإخوان أمور غير مسطورة في الحاشية، فخفت ضياعها، فقصدت بوضع هذه الحاشية حل عبارة المتن بقدر الإمكان، والاقتصار على حل مبانيه، وكشف معانيه»(٢).

(١) حاشية العطار على شرح الخبيصي، ص١٣٨.
(٢) حاشية العطار الصغرى على مقولات السجاعي، ص ١٥١.

وهذا من آثار البيئة العلمية الحية، فإن أركان التعليم خمسة، وهي: الأستاذ والطالب والكتاب والمنهج والبيئة العلمية، والبيئة العلمية تزيل فتور الطالب، وفيها تتلاقح آراء العلماء وتنمو، وتعلو راية تحرير المسائل وتحقيقها وتهذيبها.

**٣- التضلُّع من العلوم الحديثة**:

لم يقف علم العطار على حدود جدران الجامع الأزهر، بل تجاوزها وتعلَّم ما كان غائبًا عن الأزهرين من علوم، فاتصل ببعض رجال الحملة الفرنسية، فعلَّمهم اللغة العربية، وتعلَّم منهم، «فكان يستفيد منهم الفنون المستعملة في بلادهم، ويفيدهم اللغة العربية، ويقول: إنَّ بلادنا لا بدَّ أن تتغير أحوالها، ويتجدَّدَ بها من المعارف ما ليس فيها، ويتعجَّبُ مما وصلت إليه تلك الأمة من المعارف والعلوم وكثرة كتبهم وتحريرها وتقريبها لطرق الاستفادة»(١).

ومن شغفه بالعلوم الحديثة أنه وقف على علوم الجغرافيا والطب والكتب المعرَّبة، ويَشْهَدُ بذلك تلميذه رفاعة الطهطاوي حيث يقول: «وكان للمرحوم الشيخ حسن العطار شيخ الأزهر أيضًا مشاركة في كثير من هذه العلوم، حتى في العلوم الجغرافية، فقد وجدت بخطه هوامش جليلة على كتاب تقويم البلدان لإسماعيل أبي الفداء سلطان حماة، المشهور أيضًا بالملك المؤيد، وللشيخ المذكور هوامش أيضًا وجدتها بأكثر التواريخ، وعلى طبقات الأطباء وغيرها، وكان يطلع دائمًا على الكتب المعربة من تواريخ وغيرها، وكان له ولوع شديد بسائر المعارف البشرية مع غاية الديانة والصيانة، وله بعض تآليف في الطب وغيره، زيادة عن تآليفه المشهورة»(٢).

ويتعرَّض لمسألة، فيجد أنَّ تحريرَ محلِّ النزاعِ فيها يتوقَّفُ على معرفة العلوم

(١) الخطط الجديدة، ٣٨/٤.

(٢) الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي، ٦٨١/١.

الطبيعية كعلم الحِيَل واستحداث الآلات، وهو العلم الذي يُبْحَثُ فيه عن الآليات وضبطها وتحريكها، ويُعْرُف بالميكانيك، ولم تكن هذه العلوم ساعتها مشهورة لدى الأزهريين، فيقول: «ووقع في زماننا أنْ جُلِبَتْ كتبٌ من بلاد الإفرنج، وتُرْجِمَتْ باللغة التركية والعربية، وفيها أعمال كثيرة، وأفعال دقيقة، اطَّلعنا على بعضها، وقد استخرجت تلك الأعمال بواسطة الأصول الهندسية والعلوم الطبيعية من القوة إلى الفعل، وتكلموا في الصناعات الحربية والآلات النارية، ومهَّدوا فيها قواعدَ وأصولًا حتى صار ذلك عِلْمًا مستقلًا مُدَوَّنًا في الكتب، وفرَّعوه إلى فروع كثيرة، ومَنْ سَمَتْ به هِمَّتُهُ إلى الاطِّلاع على غرائب المؤلفات وعجائب المصنفات، انكشف له حقائق كثيرة من دقائق العلوم، وتنزهت فكرته إن كانت سليمةً في رياض الفهوم»(١).

ويفخر بالعلماء السابقين الذين جمعوا إلى العلومِ الإسلاميةِ العلومَ والمعارف الحديثة، تأمَّلْ كلامَه في شرحه على شرح الجلال المحلي لجمع الجوامع، وهو يُقارِنُ الحالَ العلميَّ بين الواقع والماضي، ويَنْعَى على علماء عصره الذين لا ينفكُّون عن كُتُبٍ بعينها، قائلًا: الأئمة الأعلام «كانوا مع رسوخ قدمهم في العلوم الشرعية والأحكام الدينية، لهم اطلاعٌ عظيمٌ على غيرها من العلوم، وإحاطةٌ تامةٌ بكُلياتها وجزئياتها، حتى في كتب المخالفين في العقائد والفروع.... ثم هم مع ذلك ما أخلُّوا في تثقيف ألسنتهم، وترقيق طباعهم من رقائق الأشعار، ولطائف المحاضرات.... ومَنْ نَظَرَ... فيما انتهى إليه الحال في زمنٍ وَقَعْنَا فيه عَلِمَ أنَّ نِسْبَتَنَا إليهم كنسبة عامة زمانهم، فإنَّ قصارى أمرنا النقل عنهم بدون أنْ نَخْتَرِعَ شيئًا من عند أنفسنا، وليتنا وصلنا إلى هذه المرتبة، بل اقتصرنا على النظر في كتبٍ محصورةٍ ألَّفها المتأخرون المستمِدُّون من

(١) حاشية العطار على جمع الجوامع، ٥٠٦/٢.

كلامهم، نُكرِّرها طول العمر، ولا تطمح نفوسنا إلى النظر في غيرها، حتى كأنَّ العلمَ انحصرَ في هذه الكتب..... وهذه نَفْثَةُ مَصْدُورٍ، فنسأل الله السلامة واللطف»(١).

لا يريدُ مجردَ قتلِ التراثِ بحثًا وفهمًا، بل يريد معه أن تطمح النفس إلى إكمال السلسلة المعرفية باستيعاب ما خفي من كنوز الأئمة، وبالبحث والدرس والنقد والإضافة، ولا يعني قولنا: إنَّ العطار كان متضلعًا من العلوم الحديثة أنه يُهمل العلوم الأزهرية؛ لأنه تلقَّى علومَ المنقولِ والمعقولِ على أكابر عصره، كالعلامة الصبان والدسوقي والأمير الكبير والسُّجاعي وغيرهم، ومَنْ تعلَّم على يد الكبار صار كبيرًا، ولئن كان الأزهريُّ بالمعنى المطابقي هو مَنْ يُتقِنُ العلومَ النقليةَ والعقليةَ والسلوكية، فإن العطار زاد عليها بالعلوم التجريبية، وهذا يدلُّنا على أنَّ مَنْ يَرومُ تجديدًا فعليه أن يُتْقِنَ العلومَ الأزهرية أَوَّلًا، وإلا فكيف يُجدِّدُ شيئًا يَجْهَلُ حقيقتَهُ؟! وإني أكاد أجزم أنَّ أكثر مَنْ يقولُ بلسانه: التجديدَ التجديدَ، لا قديمًا عَرَفَ، ولا جديدًا جدَّد، فإتقان العلوم القديمة هو بداية التجديد الحقيقي، لا التجديد الادِّعائي أو اللساني.

ومن أهم الأسباب التي ساعدت العطار في تلقي العلوم الحديثة فضلًا عن صفاته النفسية هو ترحُّله إلى بلاد أجنبية أكسبته معارف جديدة ليست موجودة ببلاده، فتعلَّم وعلَّم وألَّف في تلك البلاد، يقول: «ولم أَزَلْ أجوبُ أرضًا بعد أرض، وأتركُ عليَّ حكمَ الدَّهْرِ من شامخٍ عالٍ إلى خفض، تارةً تحت ظِلِّ شِرَاعٍ، وآونةً بين وُهودٍ وقِلَاعٍ، فلم يبقَ بَرٌّ ما طَوَيْتُ بِسَاطَهُ، ولم يبقَ بحرٌ ما نشرتُ شِرَاعَهُ»(٢).

(١) المرجع السابق، ٢٤٧/٢.
(٢) راحة الأبدان في نزهى الأذهان للعطار (مخطوط)، (٥/أ).

ويقول صاحِبُهُ العلامة محمد العطار الدمشقي: «ثم نَزَحَ عن وطنه، وتوجَّهَ إلى البلاد الرومية، وذلك سنة ١٢١٧هـ، فجال في تلك البلاد، وطاف بها في كل واد، حتى ورد علينا مدينة دمشق، في ربيع الأول سنة ١٢٢٥هـ، وتذاكر معي في علوم كثيرة، تتعلق بالرياضيات والطبيعيات والإلهيات، وكان قد قرأ التشريح والطب بمدينة القسطنطينية، وتعلم هذه المنظومة هناك، ونظم بها أيضًا منظومة المقولات، وكنت إذ ذاك بإسلامبول، فأشار عليَّ بشرحها، فلم يتيسر لي.... وألف بمدينة إشكودرة[١] من بلاد الأرنؤد حاشية على شرح الإظهار للعلامة مصطفى الآطه لي، المسمى بـ «نتائج الأفكار» ...»[٢].

ولما أقام بالقسطنطنية انتظم في سلك المولى الفاضل حضرة «حكيم باشا»، فحضر مجالسه التي لا تنفكُّ عن الحُذَّاق، ولما رأى فيه «حكيم باشا» النشاط والإقبال، ضمَّه إلى درسه في الطب، ويصِفُ العطارُ حالَهُ في تلك المجالس بقوله: «فكنتُ ألتقِطُ منهم في أثناء المذاكرة دُرَرَ فوائد، وأُقيِّد في سطورِ الطروسِ غررَ فرائد، ولما وجد عندي لذلك العلم قابلية وإقبالًا ونشاطًا لا يصحبه فُتُورٌ ولا مَلَلٌ، ضمَّني لمن يحضر في ذلك العلم الدرس، وذلك أمرٌ بعيد المنال عندهم على كل نفس، فواظبت الدروس الطبية مدةً من الزمان، وأنا في خلال ذلك أُباحِثُ الإخوان وأُناضِلُ الأقران»[٣].

وبعد سفره لبلاد الروم والشام عاد إلى مصر، وقد استكمل في هذه السياحة عشرة أعوام[٤]، وقد أقرَّ له علماء عصره بالانفراد، وعقد مجلسًا لقراءة تفسير البيضاوي، وقد مضت مدة على هذا التفسير لا يقرؤه أحد، فحضره أكابر

(١) من بلاد الروم، وهي إحدى المدن الألبانية.
(٢) أسانيد المصريين: د/ أسامة الأزهري، ص ٣٩٧، وما بعدها.
(٣) راحة الأبدان في نزهة الأذهان (مخطوط): العطار، ٥/أ.
(٤) صرح العطار بذلك في حاشيته على شرح إيساغوجي، ص ١٠٦.

المشايخ، فكانوا إذا جلس للدرس تركوا حِلَقَهم، وقاموا لدَرْسِه[١].

وحدَّث تلميذُهُ الشيخُ إبراهيم السقا: أنَّ بعض سكان مكة المكرمة المارين بمصر، أعجبهم علم الشيخ العطار، فأحبوا أن يقيم بينهم ليخلف فيهم «ابن حجر الهيتمي» وينتفعوا به وبعلمه، فاجتمعوا به، وما زالوا يحسنون له الرحلة حتى أجاب، وأخذ في تجهيز نفسه، وسمع تلاميذه بذلك فاشتدَّ أسفهم، ولم يكن فيهم من يجرؤ على منعه، قال: فاحتلت بأن أخرجته بعد الدرس من صحن الأزهر، ونحن في حَمَارَّةِ القَيْظ، وأخذت أسأله بعض المسائل، وأخرج من واحدة لأخرى، وهو يرفع رجله ويضعها من شدة حر البلاط، حتى تبين لي الضجر في وجهه وانتهرني، فقلت: يا سيدي أنت لا تطيق حَرَّ الشمس وأنت بمصر، فكيف لك بالحر في مكة وهو هناك أضعاف ما هنا؟ ففكر ثم جزاني خيرًا، وفترت هِمَّتُهُ عن السفر[٢].

والحاصل أنَّ العلامة العطار اختلف عن غيره من الأشياخ بطموحه العالي، وتعلُّمِهِ ما ليس معروفًا لدى قومه من العلوم الطبيعية والعقلية.

**٤- العناية بمؤلفات علماء العجم**:

قرَّر «حاجي خليفة» أنَّ أغلب حَمَلَة العلم في الإسلام من العجم، وفسَّر ذلك بأن الملة في أولها لم يكن فيها علم ولا صناعة، وإنما أحكام الشريعة كان ينقُلُها الرجال في صدورهم وقد عَرَفُوا مآخذها، وكانون يسمون المختصين بحمل ذلك ونَقْله بـ «القرَّاء»، حتى احتيج إلى تدوين العلوم وصيرورتها ملكات في الاستنباط والتنظير والقياس، فاندرجت في جملة الصنائع، والعرب أبعد الناس

(١) ينظر: الخطط الجديدة: علي باشا مبارك، ٣٩/٤، وحسن العطار: محمد عبد الغني حسن، ص ٢٠.

(٢) أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث: أحمد تيمور باشا، ص ٢٦.

عنها، فصارت العلوم لذلك حضرية، والحضر هُم العجم أو من في معناهم، يقول: «ولم يقم بحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم[١]، وأما العرب الذين أدركوا هذه الحضارة وخرجوا إليها عن البداوة فشغلهم الرياسة في الدولة العباسية وما دفعوا إليه من القيام بالملك عن القيام بالعلم مع ما يلحقهم من الأنفة عن انتحال العلم لكونه من جملة الصنائع، والرؤساء يستنكفون عن الصنائع، وأما العلوم العقلية فلم تظهر في الملة إلا بعد أن تميز حملة العلم ومؤلفوه واستقر العلم كله صناعة، فاختصت بالعجم، وتركها العرب، فلم يحملها إلا المعربون من العجم»[٢].

وهذا الكلام لا يفيد نفي العلوم عن العرب جملةً؛ لأن حاجي خليفة يتكلم عن توجيه غلبة العلوم على فئة، وغلبةُ صفةٍ على قوم لا يفيد نفيها عن الآخرين.

ولنفاسة مؤلفات العجم عني العطار بها، وكانت مؤلفاتهم حينئذ في بلادنا شيئًا مجهولًا، ويذكر رفيقه العلامة محمد العطار الدمشقي أنه حين زار مصر، طالعه بعض الأفاضل حاشية للعطار على الولدية لساجقلي زاده في علم آداب البحث والمناظرة، ثم يقول: «ولم يكونوا يعرفون غيرها؛ لأنه هو الذي فتح لهم هذا الباب، بوضع تلك الحاشية»[٣].

ويصرح العطار بذلك ، فيقول عن كتاب «تقرير القوانين»، و«الرسالة الولدية» للمرعشي الشهير بساجقلي زاده: «وإنني لما كنت بمصر زمن

(١) للوقوف على نماذج من العلماء الأعاجم في العلوم المختلفة ينظر: مجلة العرفان، الجزء الأول من المجلد الثاني والثلاثين، المحرم سنة ١٣٦٥هـ – كانون الأول سنة ١٩٤٥م، مقال للأستاذ/ محسن الأمين، بعنوان: نبوغ غير العرب في العلوم العربية والإسلامية، ص ٥.

(٢) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: حاجي خليفة، ٤١/١.

(٣) أسانيد المصريين: الدكتور/ أسامة الأزهري، ص ٣٩٩.

التحصيل، ما رأيت لفضلاء الوقت إلى ذينك الكتابين مرجعًا ولا تعويلًا، حتى ورد لمصر بعض الآفاقيِّين من الأساتذة المحققين، فأطلعَني على نسخة من تقرير القوانين، فسارعت في نقلها، واشتغلت بتفهُّمها وحلّها..... فجمعت من كتب الفن قدرًا صالحًا، استعنت به على تأليف حاشية لذلك الكتاب، وفتحت بإقرائه وبتأليف هذه الحاشية لأهل مصرنا للدخول في مسالك تلك الرسالة»[(١)].

والحقُّ أن علم آداب البحث والمناظرة كان معروفًا لبعض الأزهريين، مثلًا: العلامة يوسف الحفني المتوفى سنة (١١٧٦هـ) له شرح نفيس على الرسالة العضدية في آداب البحث، يظهر فيه تضلعه في هذا العلم، وقد أكثر فيه من النقل عن علماء العجم كالعلامة مير أبي الفتح، لكن العلامة العطار أشاعه بتأليف ما يناسب مستوى المبتدئين.

وتراه يستشهد بكتاب سُلَّم العلوم لمحب الله بن عبد الشكور البِهاري، ويُكْثِرُ بالاستشهاد من الأئمة المحققين كالجلال الدَّوَّاني، ومير زاهد، ويبدو هذا واضحًا في حاشيته على شرح الخبيصي، وهي آخر ما أَلَّف في علم المنطق، حيث انتهى منها سنة ١٢٤٠هـ، وفي خاتمتها يقول عن شرح سُلَّم العلوم: «وهذا الكتاب قبل تاريخه لم يكن له وجود بديارنا، وإنما قَدِمَ به وبغيره من نفائس كتب المعقول والمنقول العلامة الهمام شيخ الإسلام أحمد عارف عصمت بك زاده[(٢)]، حيث تولى قضاء المدينة ـ على ساكنها أفضل الصلاة

(١) حاشية العطار على الرسالة الولدية، ص ٧٥ وما بعدها.

(٢) أحمد عارف حكمت بن إبراهيم بن عصمت باشا (١٢٠٠ – ١٢٧٥هـ = ١٧٨٥ – ١٨٥٨م): قاض، تركي المنشأ، مستعرب، اشتهر بخزانة كتب عظيمة له في المدينة المنورة. تقلد قضاء القدس، ثم قضاء مصر، فقضاء المدينة المنورة، وانتهى به الصعود إلى أن ولي مشيخة الإسلام في الأستانة سنة ١٢٦٢هـ. الأعلام للزركلي، ١/١٤٠، وما بعدها، بتصرف.

والسلام ـ فلما عاد إلى مصر استصحب معه ذلك الكتاب مع جملة الكتب التي حصلها هناك»[١].

وفيها كذلك يشير إلى أنه حصَّل كتبًا لم يقف عليها غيره في مصر، فيقول: «رأيت للعلامة المحقق مير زاهد الهندي تحريرًا نفيسًا في هذا المقام، ذكره في حاشيته على المواقف، فأحببت ذكره ههنا لتتم الفائدة، **وربما لا يقف عليه غيري**؛ فإن حاشيته المذكورة، وكذلك حاشيته على شرح الجلال الدواني على المتن، وحاشيته على شرح الهياكل للدواني[٢]، قَدِمَ بها رجل من علماء بخارى مصر مريدًا للحج، فحصلنا منه حاشية العلامة عبد الحكيم على المواقف، وصححنا نسخة مير زاهد على الدَّوَّاني على شرح المصنف، ولم يسمح بحواشي مير زاهد ولا بغيرها من بقية الكتب التي رأيناها معه مما لا يوجد في بلادنا، بل كنا لا نعرف أسماءها فضلًا عن مسمياتها، وسبحان من أحاط بكل شيء علمًا»[٣].

ويُخطِّئ مقولةَ «ليس في الدنيا أعلم من علماء مصر»، ويحكُمُ برعونة قائلها، خلال كلامه عن عبقرية «محب الله بن عبد الشكور البِهاري»، صاحب «سُلَّم العلوم» في المنطق، و«مُسَلَّم الثبوت» في أصول الفقه، فيقول في خاتمة جمع الجوامع: «ولصاحب مُسلَّم الثبوت كتاب جليل في المنطق سماه «سُلَّم العلوم» وشَرَحَهُ جماعةٌ من علماء الهند، وعني به فضلاء تلك الديار كاعتنائهم بـ «مُسَلَّم الثبوت» وقد اطلعتُ له على شرحين ونقلت عنهما في حاشيتي على

(١) حاشية العطار على شرح الخبيصي، ص ٢٦٢.

(٢) هياكل النور للشيخ شهاب الدين السُّهْرَوَرْدي، المقتول سنة ٥٨٧هـ، وشرحه: مولانا جلال الدين محمد بن أسعد الدواني، المتوفى سنة ٩٠٨هـ، وعليه حاشية لمير زاهد، وقد أخرجها الدكتور الفاضل/ محمد رجب.

(٣) حاشية العطار على شرح الخبيصي، ص ١٣٦ وما بعدها.

الخبيصي، وما زال الزمان يأتي بالنوادر، هذا العلامة عبد الحكيم والعلامة مير زاهد، كلاهما ممن أدرك القرن الحادي عشر، ولهما من التأليف ما خضعت لها رقاب الفضلاء، وتفاخرت بإدراك دقائقها أذهان النبلاء، ولا يعجبني قول أهل ديارنا: «ليس في الدنيا أعلم من علماء مصر»؛ فإن هذا الحكم يتوقف على استقراء تام، ولا يتأتى لهم ذلك ولا غيرهم، وغاية ما يصل إليه علمنا أفراد من الأقطار القريبة منا، لا جميع الأفراد، فهذا قول ينادي برعونة قائله»(١).

ويستطرد العطار في تحقيق مسألة، فينقل تحقيقًا لجلال الدين الدَّوَّاني لنفاسته وندرته في الكتب المتداولة، يقول: «قلما سُطّر في كتاب مما نتداوله الآن»(٢).

والحاصل أن العطار استوعب ما تعارف عليه أشياخه من علوم، وزاد فكان يقتنِصُ كُتُبَ العجمِ وعلومَهُم التي هي غيبٌ بالنسبة لبيئته العلمية آنئذ فيتلقَّفها وينشط لها ويجمع لها باله.

### ٥- الصحة النفسية، والسمو الأدبي:

أثناء تحقيق حاشية العطار على شرح ملا حنفي في علم آداب البحث والمناظرة، وجدته طويل النفَس، لا يقتضب في ردِّ الاعتراضات بالإحالة إلى محلِّها أو بأنها ظاهرة، فقلت في خلدي: «كان مِزَاجُ العطارِ جيدًا وهو يكتب هذه الحاشية» حتى وجدته في نهايتها يُصرِّح بأنه كتبها على شاطئ النيل المحفوف بالأشجار البهية، يقول: «ومن الاتفاقات فيها أنها أُلِّفَتْ بشاطئ النيل الأعظم بقصر العيني بمقابلة الروضة البهية ما عدا اليسير منها فإنه بمحل

(١) حاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع، ٥٣٢/٢.
(٢) حاشية العطار على مقولات البليدي، ص ٢٣٠.

سكني، وأُلِّفَت في مجالس قليلة مع قراءة الشرح درسًا بدرس»[١]، وكانت سِنُّهُ حين كتابتها نحو ثلاث وستين سنة، وكتب وهو في هذا السن كذلك حاشيته الكبرى على مقولات البليدي على شاطئ النيل، يقول: «وكُتِبَت بشاطئ النيل بقصر العيني وقت الإقامة به»[٢]، والشاهد هنا هو سلامة مزاج العطار وحرصه على بسط النفس مع ما كان يعانيه من صِعابٍ، وأنَّ للمكان أثرًا في مِزاجِ الشخص، فالذي يكتبُ على شاطئٍ محفوفٍ بروضةٍ من الأشجار الباسقة ليس كمن يكتب في حجرة ضيقة يتساقط منه العَرَق.

ولم تكن عادةُ المشايخِ جاريةً على العناية بالشِّعْرِ، أما العطار فكان يرى ضرورةَ حفظِ الأشعار؛ لتثقيف الألسنة وترقيق الطبائع، وله في ذلك كتاب مطبوع طبعة حجرية يُسمى بالإنشاء، وله كذلك ديوان شعري لكنه مفقود، ونَقَلَ بعضَ أشعارِهِ صديقُهُ الجبرتيُّ وعلي مبارك، والعطارُ ذَكَرَ بعضَ أشعارِهِ في كتبه كذلك، ومن شعره تلك «القصيدة التي قالها في تهنئة صديق له كان نقيبًا لأشراف القدس، وأُبْعِدَ عن النقابة ثم عاد إليها مرة أخرى، وأولها:

- **الحمـــد لله علـــى فضـــله ... قـد رجـع الحـق إلـى أهلـه**
- **وآضَ روض الفضل ذا بهجـة ... من بعد ما أشفق من محلـه**
- **قد يطلب الحسناء من لم يكن ... كفـوًا لهـا للحمـق فـي عقلـه**

ومنها:

- **قد يتساوى اثنان في منصب ... وإنمـا التفريـق فـي سـبله**
- **ومفخـــر المـــرء بأفعالـــه ... لا بالذي قد مات من أهله**

(١) حاشية العطار على شرح ملا حنفي، ص٢٤٤.

(٢) حاشية العطار على مقولات البليدي، ص ٣٠٣.

**وقـد يسـود الشـخص آبـاءه • ويشـرف الفـرع علـى أصـله**

**وقـد نـرى فـرعين مـن دوحـة • تخالفا في الحكم، مع شكله**

**فالخـل والخمـر عصـير، وقـد • بـاين هذا ذاك فـي فعلـه»**[1]

وعنايته باللغة والشعر كانت من أهم أسبابِ شهرتِهِ وتميُّزِهِ عن غيره، ومَنْ ينظر إلى أصدقائه وتلاميذه يجد أن القواسم المشتركة بينهم أهمها العناية بالأدب والشعر، يقول المستشرق «إدوارد وليم لاين» الذي كان من معارف العطار: «ومن أشهر علماء القاهرة الحديثين الشيخ حسن العطار شيخ الأزهر الحالي، وهو ليس ضالعًا في أمور الفقه والاجتهاد كبعض معاصريه خاصة الشيخ القويسني، ولكنه مبرز في الأدب الرفيع، فهو مؤلِّف «الإنشاء»: عبارة عن مختارات رائعة من الرسائل العربية تشمل مواضع مختلفة، يُحتذى بها في كتابة الرسائل، و«الإنشاء» من منشورات بولاق، ولا بد عند ذكري لهذا المؤلف من إيفائي وعدًا قطعته له، وهو أنه في حال نشرت في بلادي كتابًا عن أهل القاهرة أنْ أُورِدَ اسمَهُ في كتابي من بين معارفي فأُثْنِي على براعته»[2].

ولئن كان أثر بعض العلماء ينقضي بموتهم، فإن أثر العلامة العطار ما زال باقيًا، فهو مجدِّدٌ اعتنى بتلاميذه ووجَّههم بما تقتضيه طبيعة العصر ومستجداته، ومنذ صغرنا ونحن كلما ذُكِرَ رفاعة الطهطاوي ذُكِرَ شيخه العطار، فهو الذي رشَّحه ليكون إمامًا للبعثة المصرية لفرنسا، يقول الأستاذ/ سامي بدراوي: «إن العطار كانت له فلسفة إصلاحية متكاملة أفلح في أن يجد لها من يوالونها ويتطورون بها من تلاميذه، وأهمهم الطهطاوي، والطنطاوي،

(١) مصر في القرن الثامن عشر، ٥٢/١.

(٢) عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم: إدوارد وليم لاين، ص ٢٢٠.

والعروسي، والتونسي، وغيرهم»[١].

**٦- إيثار السلامة**:

أذكر لذلك نموذجين:

**الأول: عن علاقة العطار بالفرنسيين:**

لما قَدِمَ الفرنسيون إلى مصر هرب العطار إلى أسيوط، وعاد بعدها فاتصل بهم، ثم سافر إلى بلاد الشام وتركيا وفلسطين، وعاد إلى مصر في عهد محمد علي بعد عشر سنوات، ويُرجِّح الأستاذ سامي بدراوي أن سبب سفره هذا هو «أنه خرج مكرهًا بسبب العسف الفرنسي، أو احتجاجًا على إساءة الفرنسيين معاملة المصريين»[٢].

ويؤكِّدُ هذا التوجيه ما سجَّله العطارُ وهو في غربته عن ظلم الفرنسيين بقوله: «محى اللهُ آثارهم، وأباد أشرارهم، وهم لعمري كلهم أشرارٌ طغاةٌ فجَّارٌ، أحيوا بها سُنَّةَ القبط في بني إسرائيل، واستطالوا بقوتهم على ضعفاء أهلها الذين أسلحتهم: «حسبنا الله ونعم الوكيل»... ناهيك بقوم نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، وتشردت الفضلاء من فجورهم وشرورهم... وتفننوا في أفانين الفساد، وإضرار العباد فبادوا، استدرجهم الله من حيث لا يعلمون، وسيحصل لهم من الهلاك ما يعتبر به المعتبرون، ولا تحسبن الله غافلًا عما يعمل الظالمون، نفَّس اللهُ عن هذه العِصَابةِ الضعيفةِ الخِنَاق، وأزال عنهم سحابة هذا المكروه التي غطَّت الآفاق»[٣].

فلعل العطار خشي على نفسه لِمَا لمسه من بطش الفرنسيين الذي امتد إلى

(١) مجلة المجلة، السنة التاسعة، العدد ٩٩، مارس ١٩٦٥م، مقال للكاتب: سامي بدراوي، بعنوان: الشيخ حسن العطار رائد البعث الأدبي في مصر الحديثة، ص ٣١.

(٢) مجلة المجلة، السنة التاسعة، عدد: ٩٩، مارس، ١٩٦٥، ص ٣٤.

(٣) راحة الأبدان في نزهى الأذهان للعطار (٤/أ، ب).

الجامع الأزهر فعبثوا فيه بالخيول، وقتلوا بعض علمائه، ومن هنا فرَّ العطار إلى أسيوط، والباجوري إلى الجيزة... إلخ، فحَفِظَ اللهُ لنا العلم بهؤلاء الناجيين.

**الثاني: عن علاقة العطار بمحمد علي:**

كان العطار على علاقة جيدة بمحمد علي، وقد ألقى عليه من المناقب والمدائح الشيء الكثير في طالعة كتابه الإنشاء، فوصفه بقوله: «حضرة الوزير المكرم، والمشير المفخم، صاحب الهمة التي هي أمضى من الصارم، والعزيمة التي تسجد خاضعة لها العزائم، والسطوة التي راعت في آجامها الآساد، وخلعت قلوب الأعداء من الروع وفتت الأكباد، وأنامت الأنام في ظل أمن، وتركت الذئب يرعى مع الشاة في كل سهل من الأرض وحزن، ذو الفتوحات المتجددة في كل آن.....»[(١)].

فعلاقته بمحمد على جيدة، وهو الذي ولَّاه مشيخة الأزهر، لكن لما استولى محمد علي على أوقاف الأزهر نَضَبَتْ موارده، والعطار ليس من أرباب التصادم، بل كان يُؤْثِر السلامة، فخشي أن يناله ما نال غيره من يد محمد علي فآثَرَ السلامة، ولو أتاحت له السلطةُ السياسيةُ الإذنَ بالإصلاح، ووفرت له الدواعي، لرأينا من العطار إصلاحات واضحة المعالم داخل الجامع الأزهر وقتما تولى مشيخة الأزهر (١٢٤٦ – ١٢٥٠هـ) [(٢)].

(١) إنشاء العلامة العطار، ص ٤.

(٢) ينظر: تاريخ الإصلاح في العصر الحديث (١٨٧٢ – ١٩٦١): د. مصطفى محمد رمضان، ص ١٣.

## المبحث الثالث

## منهجية العطار العلمية

### ١- الرجوع إلى منابِع العلوم والمسائل:

يُلاحَظُ في حواشي العطار بالنظر إلى المَوْرِدِ العلمي أمران:

**أولهما:** أنه يستقي حاشيته من عِدَّة موارد رئيسة في الفن، تُغني عن غيرها ولا يُغني عنها غيرُها، فيخوضُ بحرَ لُجَجِها بالبيان والتحرير، فتصبحُ حاشيتُهُ الواحدةُ جامعةً لعدَّةِ حواشٍ.

**ثانيهما:** أنه يتعقَّبُ الحاشيةَ إن شردت عن مقصود الشارح، أو تكلفت في بيان المراد، أو مالت إلى الغموض.... إلخ.

ومما يدل لذلك:

**أولاً:** حاشتيه على شرح الملا حنفي على الرسالة العضدية في علم صناعة التوجيه، فقد اعتمد فيها على أربعة موارد رئيسة، وهي: حاشية مير أبي الفتح على شرح ملا حنفي، وحاشية مير صدر الدين الشرواني على شرح ملا حنفي، وحاشية حسن چلبي على حاشية مير أبي الفتح، وتقرير القوانين لمحمد المرعشي المشتهر بسَاجَقْلِي زاده.

وهذه الأربعة تتضمن كثيرًا من الشروح والحواشي لأشهر رسالتين في الفن؛ وهما: الرسالة العضدية والرسالة السمرقندية، إلا أنَّ جُلَّ اعتماد العطار إنما كان على العضدية وحواشيها.

ويترنَّمُ بوصفِ حاشية مير أبي الفتح بأنها أجلُّ الحواشي قدْرًا، وأدقها سرًّا، ويعلل ذلك بقوله: «فإنها لعمري هي الحاشية التي فضائلها فاشية، ولِعِلَلِ الجهالات شافية، ومن السقوط في مزالق الأوهام واقِيَة، اعتَنَتْ أكابر المحققين بالكتابة عليها، وتفننوا في وضع الحواشي المقرِّبة للوصول إليها، وهي عدد

كثير، وكلٌّ قدرُهُ خطير، ونفعه غزير، وأمره بين أهله شهير، فرحم الله ذلك الجمع الذي عمَّ به النفع، فإنَّ كلَّ مَن تصدَّى لتحشية هذا الكتاب فَلَهُ على تلك الحواشي المعوَّل، وبها يترنَّم في مَيْدان التحقيق قائلًا: آخر شوقي إليك أول».

ثم يقول عن حاشية مير صدر الدين: «ورأيت على هذا الشرح أيضًا حاشية للعلامة مير صدر تنحو منحى تلك الحاشية في تكثير الفوائد، ونَظْم الفرائد، والأبحاث الدقيقة، والتحريرات الأنيقة».

ومع جلالة قدر الحاشيتين يعلل الداعية إلى وضع حاشيته بقوله: «وكلا الحاشيتين قد برزا في صعوبة التركيب، واستترا إلا عن أَلْمعِي الذهن في رموز الأساليب، فكان هذا داعيةً لإعراض كثيرٍ ممن رضي بخمول نفسه عن النظر فيهما والستور عليهما»، فالتَقَطَ دُرَرَ هذه الحواشي، ونسجها في ثوب واحد.

**ثانيًا:** حاشيته على السُّلَّم المنورق للعلامة عبد الرحمن الأخضري في علم الميزان، فقد اعتمد فيها على ستة موارد أساسية، هي: شرح الملوي على السُّلَّم، وللملوي على السُّلَّم شرحان: الشرح الكبير، والشرح الصغير، وعلى هذا الشرح الصغير حاشية نفيسة لشيخه الصبان، وشرح سيدي سعيد قَدُّورة على السلم، ومختصر السنوسي، وشرح سعد الدين التفتازاني على الشمسية، وشرح القطب الرازي لمطالع الأنوار للأُرْموي.

يدلُّ ذلك على أنَّ العطار كان يرجع إلى عيون العلوم ومناشئها ومنابعها، ولا يقتصر على كتابات المتأخرين، وقد أَخَذَ على شيخه البليدي أكثرَ من مرةٍ اعتماده في بعض المسائل على غير مُحَرَّرات الفن، ومن ذلك أنَّ البليدي أحال في مسألة الزمان إلى شرح المحلي على جمع الجوامع للتاج السبكي، فحرَّرَ العطارُ المسألةَ من شرح المواقف، ثم قال: «فمن أراد تحقيق المقام فليرجع إليه أو إلى مثله كالصحائف والمقاصد، وأما جمع الجوامع فإنه كتابٌ في أصول الفقه، وذُكِرَت هذه المباحث آخره استطرادًا على سبيل التَّعْدَاد بدون أنْ تُبين أتم

البيان، فليس الرجوع إليه لخصوص مسألة الزمان كبير فائدة؛ إذ ليس هو بصدد شرحها، وإنما ننظر هذه المباحث في مبسوطات الكتب الكلامية، ومَن طلب الْبَحْرَ استَقَلَّ السَّوَاقِيَا»[١].

وحاصله: أنَّ تحرير المقام في مسألة الزمن يكون بالرجوع إلى مبسوطات الكتب الكلامية، وأشهرها: شرح المواقف للسيد الشريف الجرجاني، وشرح المقاصد لسعد الدين التفتازاني، والصحائف الإلهية لشمس الدين السمرقندي، وطوالع الأنوار للبيضاوي، فلا تُترَك هذه الكتب الكلامية، ويُذهب إلى كتبٍ في فن آخر ذكرَت بعضَ المسائل الكلامية على سبيل الإجمال.

وبعد أنْ بيَّن العطار أنَّ اللائق بشيخه البليدي أن يعتمد على مُحرَّرات الفن، رَسَمَ الفرقَ الدقيق بين التأليف والتجميع، فالتجميع: مجردُ جَمْعٍ على غير نظام، والتأليف: اعتمادٌ على المنابِع مع التحقيق والتحرير، وشرح المغالق، وتبيين المرامي، وتقييد المطْلَقَات، وتزييف المخالِفات، فيقول: «وقد كان اللائق بمقام المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ حيث تعرَّض لوضع هذا التأليف أن يعتمد محررات كتب الفن، لا أنه ينقُلُ عن حواشي الصغرى، ولقطة العجلان، وما ضاهاهما، بل كان اللائق بمنصبه في العلم أن ينقل عن نحو الشفاء والإشارات وشروحهما، مع التحرير والتوفيق بين الأقوال المتخالفة، وشرح ما أُغْلِقَ من كلامهم، وتبيين ما خفي من مَرَامهم، وتقييد ما أطلقوا، وتزييف ما خالفوا فيه صريح العقل ولم يساعده نقل، إلى غير ذلك من الفوائد التي إذا خلا عنها مؤلف كان حريًّا بأن لا يطلق عليه اسم التأليف، بل مجرد جمع»[٢].

(١) حاشية العطار مقولات البليدي، ص ١٧٩ وما بعدها.

(٢) حاشية العطار على مقولات البليدي، ص ١٨٠، والصغرى هي عقيدة أم البراهين لشيخ المتكلمين السنوسي، وهي أجمع كتبه وأفضلها، ولقطة العجلان وبلة الظمآن للزركشي، وعليه شرحٌ لشيخ الإسلام زكريا الأنصاري، وعلى هذا الشرح حاشية للشيخ يس

وبمراعاة هذه القواعد وتطبيقها يشير العطارُ إلى أنَّ كتاب (نتائج الأفكار) لمصطفى بن حمزة على متن (إظهار الأسرار) للبركي في علم النحو، مستمدٌّ من غيره، ولم يأتِ من عندياته بشيء، ولا تتأتى معرفة ذلك إلا بالتمكُّن من الفن، والوقوف على منابع العلم وموارد المؤلِّف، فيقول: «مَنْ تتبَّع الشرح وجده كله مستمدًّا من الامتحان والجامي وحواشيه، حتى كلامه في شرح الخطبة، فإنه مأخوذ من الهوادي والإمعان وتفسير القاضي البيضاوي وحاشية العصام، لم يأتِ من عنده بشيء أبدًا سوى المبالغة في إيجاز العبارة، وتعمية معناها، وتعقيد مبناها، وربما نقل عبارة الغير بالحرف»(١).

ومن نماذج تعميته في العبارة أنه عبَّر عن «متن الاستعارات» للسمرقندي بـ «الفرائد» فيقول: «على ما اختاره في شرح الفرائد» مع أنَّ الشائع على ألسنة أهل العلم «شرح الفريدة» أو «شرح السمرقندي» أو «الاستعارات»، وتعبيره بـ «الفرائد» ربما تقرأ «الفوائد» إذا غُلظت الراء، ويؤيد هذا الاحتمال أن الكتب وقتها كانت تُنسخ، فينصرف الذهن حينئذ إلى «الفوائد الضيائية» أو «الفوائد الغياثية»(٢).

ولك أن تقول: ما المعابة في أن يستمد المؤلِّف من غيره، لا سيما في علم النحو؛ فإن قواعده ومسائله مشهورة؟ يستشعر العطار هذا الإيراد، فيذكره

الحمصي، والشفاء والإشارات كتابان للشيخ الرئيس ابن سينا.

(١) حاشية العطار على نتائج الأفكار (مخطوط)، ص ١٤، وكتاب الامتحان هو: امتحان الأذكياء شرح لب البيضاوي للبركوي في علم النحو، وكتاب الإمعان هو: إمعان الأنظار شرح كتاب المقصود للبركوي في علم الصرف، والهوادي أصله: أنَّ العلامة نور الدين حمزة بن طورغود لخص تلخيص المفتاح في علم المعاني والبيان للقزويني في كتاب سماه: (المسالك)، ثم شرحه شرحًا ممزوجًا سماه: (الهوادي).

(٢) ينظر: حاشية العطار على نتائج الأفكار (مخطوط)، ص ٥٠.

ويجيب عنه بالفرق بين التأليف والتجميع، ومتى يكون العمل العلمي جديرًا بأن يُطلق عليه اسم التأليف، فيقول: «فإن قلت: إن جميع المؤلفات كذلك مُستمدَّة من غيرها. قلت: نعم ولكن لا بدَّ للمؤلِّف من إبداءِ مَزِيَّةٍ: إما جوابٌ عن إيرادِهِ أو ردِّهِ أو تركِهِ، أو ترجيحُ أحدِ قولين، أو ردٌّ لكلامٍ قاله الغير، أو توضيحٌ لمعنى خفي، أو نحو ذلك من تقييدِ مطلقٍ، أو إطلاقِ مقيَّدٍ مما هو شأن المؤلِّف حقيقةً، وإلا فمجرد الجمع بدون إظهارِ مَزِيَّةٍ لا يُحسب من التأليف عند أرباب الروية»[١].

ووجد العطارُ شيخَهُ السُّجَاعيَّ قد نَسَبَ قولًا لأكثر المتكلمين عن وجود النِّسَب والإضافات، وأضاف هذا القولَ إلى الزركشي، فرجع العطارُ إلى شرح الزركشي لجمع الجوامع، ونَقَلَ عبارته بحروفها، وبيَّن أن السُّجَاعي تصرَّف في العبارة، فعمَّمَ الحكمَ من عند نفسه، ولفَّقَ بين عبارة السبكي والجلال المحلي، وادَّعَى نَقْلَ الزركشي لها بحروفها، يقول العطار بعد رجوعه إلى نقول كُلٍّ: «وبه تعلم كيف تصرَّفَ المصنفُ؛ فإنَّ التعميم المذكور من عند نفسه، وصَدْرُ العبارةِ للجلال المحلي، فلفَّقَ بين العبارتين، وأدرج التعميم، فصار الكلام غير مستقيم. فإن قلتَ: جاز أن يكون الزركشي ذكره في لقطة العجلان. قلتُ: لم يذكرها؛ فإني راجعتها فلم أجده ذَكَرَ هذا»[٢].

وينقل شيخُهُ السُّجَاعي كذلك عن شرح الطوالع تعريف السكون والحركة، فيقول العطار: «قد تصفحت شرح الأصبهاني مرارًا فلم أجد هذه العبارة، والذي رأيته فيه.... فلعل ما نُقِلَ هاهنا عن غير شرح الأصبهاني»[٣].

وهذا يرشد الباحثَ إذا وجد نصًّا منقولًا فلا بد من الرجوع إلى الكتاب المنقول

(١) حاشية العطار على نتائج الأفكار (مخطوط)، ص ١٤.
(٢) حاشية العطار الصغرى على مقولات السجاعي، ص ١٧٨.
(٣) المرجع السابق، ص ٢٤٧.

عنه إن صُرِّح باسم الكتاب المنقول عنه، وإن لم يُصرّح به يتتبعه في كتبه الأخرى، وفي أكثر من موضع في حاشية العطار الصغرى على مقولات السجاعي رجع إلى الكتاب المنقول عنه، واستدرك على الناقِل.

**٢- تحقيق المسائل** (١).

يحقّقُ العطار المسائل فتعجب لاستيعابه ونقده وترجيحه، فيقول مثلًا: وهو وهم، وليس بصواب، وهو الصحيح، وهو التحقيق، وأحيانًا يُورِدُ منشأ المسألة، ثم يقول: «فهذا من قلة التتبُّع»(٢).

ويقِفُ أمامَ موضعٍ وهو يكتب حاشيةً على مقولات شيخِهِ العلامة البُلَيْدي، وهي أعظم حواشي العطار على المقولات، فأعياه ذلك، لكنه لم يستسلم، وظلَّ يعرِضُ مسائله على كتبِ الفن مسألةً مسألةً، وغرضه بذلك التحقيق، لا أن يُخالِفَ ليُذكر، يقول: «وعند وصولي لهذا المحل توقفتُ عن الكتابة زمنًا، وكرَّرتُ فيه النظرَ مِرَارًا عسى أن أُقرِّره بحسب ما قال، وألتمسُ له وجهَ صحةٍ بحسب الحال، فأعياني ذلك، وضاقت عليَّ في تصحيحه المسالك، فرجعتُ لقول مَن قال: (ولن يصلح العطار ما أفسد الدهر)، ولم يسعني السكوت عن تحقيق الحق، ولنعم ما قاله القاضي أبو بكر الباقلاني: (الله أعلم أني لم

(١) فرقٌ بين خمس مصطلحات في التراكيب: **التحقيق:** وهو إثبات المسألة بدليلها، وقيل: هو إثبات المسألة بالدليل سواء كان على وجه فيه دقة أم لا. **والتدقيق:** وهو تقوية الدليل المثبت للمسألة بدليل آخر، وقيل: هو إثبات المسألة بدليها على وجه فيه دقة سواء كانت الدقة لإثبات دليل المسألة بدليل آخر أو لغير ذلك. **والترقيق:** وهو التعبير بفائق العبارات الحلوة. **والتنميق:** وهو أن يراعى في التركيب النكات المعانية والمحسنات البديعة. **والتوفيق:** وهو سلامة التراكيب من الاعتراض. حاشية الحفناوي على شرح العضدية، ص ١٣، بتصرف.

(٢) حاشية العطار على شرح شيخ الإسلام زكريا الأنصاري على إيساغوجي، ص٢٨.

أُخالِف أشياخي لِأُذْكَر، ولكن التقليد في أصول الدين ممتنع)، ولا يخفى أن المسائل المذكورة هنا ينبني عليها كثيرٌ من العقائد الإسلامية، فهي مبادٍ لها، فلا يحسن فيها التقليد، وأنا إن شاء الله لا أُقرّر مسألةً من كلامه إلا بعد مراجعتها في أصول محرَّرة معتمدة، هي دواوين الكلام، ومرجع الفضلاء الأعلام، فإن وافقت ما قالوه فبها ونعمت، وإلا فإن أمكن إصلاحها ولو بضميمة خارجية حتى توافق المنقول والمعقول فعلت، وإلا ذكرتُ أصلَ المسألةِ كما رأيتَ منا فيما سبق، ونبهتُ على ما وقع له فيها من الخلل، كل هذا بحسب ما أقدر عليه، ولم آل جهدًا في تقرير كلامه بحيث يتضح لكل طالب منصف، وذكي غير متعسف، متجانبًا عن التحامل والاعتساف، سالكًا سبيل الإنصاف»[١].

ويأخذ العطار على شيخه السُّجَاعي تخريج كلام الحكماء على مذهب المتكلمين، مع أنَّ لكلّ واحدٍ منهما اصطلاحه، ومن غير المستقيم تخريج كلام أحدهما على الآخر، فبعد أنْ قرَّر رأي السُّجاعي قال: «ويَرِدُ على المصنف اعتراض، وهو أنه بصدد تقرير كلام الحكماء، فعدوله عن تعريف العرض باصطلاحهم، وتعريفه بما اصطلح عليه المتكلمون لا ينبغي في صناعة التدوين، فكان اللائق به أن يذكر أولًا تعريف الحكماء للعرض، ثم تعريف المتكلمين، لا أنه يحذف تعريف الحكماء رأسًا»[٢]، فلا يكتفي بعَرْض الآراء، والتسليم بما فيها من نسبة قولٍ لعالِم معين، وإنما يتتبَّعُ كتبَ الفن قبل هذا الشارح، وكأنها كتابٌ مفتوحٌ أمامَهُ، ويرصد منشأ هذا القول، وتناقل العلماء له، ويتتبع أقوال العالم في مظانها وغير مظانها.

(١) حاشية العطار على مقولات البليدي، ص ١٧٥.
(٢) حاشية العطار الصغرى على مقولات السجاعي، ص ١٨٢.

وينقل كلامًا للمحقِّق الدواني، وبعده يقول: «وما نُقِلَ عن الدواني كلامٌ إقناعيٌّ، جارٍ على طريقة الحكماء الإشراقيين، وهو رجمٌ بالظنون»(١).

ونراه يرفع لواء التحقيق، ويدفعُ ما يُبعِدُ عنه من تشغيبٍ أو شهرةٍ، ويدلُّ على ذلك:

**أولًا:** عدم تأثُّره بكثرة مدح كتابات داود الأنطاكي الطبية، بل حاكَمَ كلامه إلى كلام الأقدمين من أهل التحقيق، يقول: «وإني كنتُ على هذه العقيدة مُقلِّدًا لما أسمع من مبالغة الناس، حتى أزال الله عني الريب والالتباس بالنظر لما سطَّر المحقِّقون من الحكماء، وحرَّره المدقِّقون من الجهابذة الأطباء، فرأيتُ هذا الرجلَ قد استمدَّ من كلامهم ما لا يُحسِنُ استمداده، وعقَّد العباراتِ حتى أخفى على الناظرين مراده، وأَوْرَدَ من عنده شكوكًا تخيَّلها، وأبحاثًا توهَّم صحتها فبرقشها واستهولها، مع قَعْقَعَةِ ألفاظٍ بدون طائل، وعَجْرَفَةِ عباراتٍ تُرى كشيء هائل، يتوهَّمها الفاضلُ بالنظرة الأولى شيئًا فضلًا عن الجاهل، وما أحقه بقول القاضي الفاضل: الكلل هائل ولا طائل، وبما قيل في المثل: إني لأسمعُ جَعْجَعَةً ولا أجِدُ طِحْنًا»(٢).

**ثانيًا:** لشيخه الصبان حاشية على شرح ملا حنفي في آداب البحث، كانت معروفةً لدى الأزهريين، لكن العطار لم يُشغِل فكرَهُ بالنظر فيها، لكون أغلبها مأخوذًا من المتقدِّمين، ويُومِئُ إلى ذلك دون أن يُصرِّح باسم شيخه قائلًا: «وهناك أيضًا حواشٍ هي الآن كثيرة الاستعمال، قريبة المأخذ والمنال، لم أُشغِل فكري بإمعان النظر فيها، ولا التعويل في النقل عليها لأمر ما، إذا رجعت أيها اللبيب إلى نفسك، واستعملت دقيق فكرك، وصائب حَدْسك، وخلعت رِبْقَةَ التقليد

(١) المرجع السابق، ص ٢٠٥.

(٢) راحة الأبدان في نزهة الأذهان للعطار (مخطوط)، (٦/أ).

من رقبتك، وأزلت حجاب التعصب عن سَجِيَّتك، وجمعت بين مقالة المتقدِّم والمتأخِّر، ونقدتهما نقد خبير متدبر، وقفت على حقيقة الحال، وكنت في غُنْيَةٍ عن بسط السؤال»(١).

وفي حاشيته على السُّلَّم في علم المنطق لم يذكر شيخَه العلامة الصبَّان إلا بقوله: «شيخنا» نحو ست وعشرين مرة، ومع ذلك استدرك عليه كثيرًا، فيقول بأدب وتعظيم: «ولشيخنا هنا كلامٌ غيرُ مستقيمٍ... وقد سَرَى هذا الوهم لشيخنا في الحاشية... ووقع في حاشية شيخنا هنا أمران يُتعجَّب منهما...»(٢)،

وعلى منوال العطار كان العلامة تاج الدين السبكي، فقد تتلمذ للحافظ شمس الدين الذهبي، ومع تبجيله لشيخه الذهبي حذَّر من أقواله في حق الأشاعرة، يقول بعد أنْ بيَّن أنَّ التعصبَ والعدواةَ واعتقادَ ضلال الخصم قد يكون هو الباعث على الضَّعَة من أقوام والغض منهم والوقوع فيهم: «والذهبي أستاذنا ـ والحق أحقُّ أن يتبع ـ، ولا يحل لمؤمن يؤمن باللَّه واليوم الآخر أن يعتمد عليه في الضَّعَة من الأشاعرة»(٣)، ويفتي بعدم الاعتماد عليه في هذا المقام بقوله: «والذي أفتي به أنه لا يجوز الاعتماد على كلام شيخنا الذهبي في ذم أشعري ولا شكر حنبلي والله المستعان»(٤)، ويشهد بورعه وتقواه في قوله: «وهذا شيخنا الذهبي كان سيِّد زمانه في الحفظ مع الورع والتقوى، ومع ذلك يعمِد إلى أئمَّة الإسلام من الأشاعرة، فيظهر عليه من التعصُّب عليهم ما ينفِّر القلوب، وإلى طائفة من المجسمة فيظهر عليه من نصرتهم ما يوجب سوء الظن به؛ وما كان

(١) حاشية العطار على شرح ملا حنفي، ص ٦٩.

(٢) حاشية العلامة العطار على متن السلم، ص ١١٢، ١٩١، ٢٨٧.

(٣) معيد النعم ومبيد النقم: تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي، ص ٦١ وما بعدها.

(٤) طبقات الشافعية الكبرى: تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي، ٢/٢٥.

واللَّه إلَّا تقيًّا نقيًّا، ولكن حمله التعصب، واعتقاده أن مخالفيه على خطأ»[١].

وهذا يدلنا على أن معيار النقد عند الأفاضل يقوم على التحقيق، دون تأثُّرٍ بشهرة عالم أو كتاب، ولا يمنعهم الحقُّ من قول الحقِّ، ولا تحجمهم التلمذة من الإقدام على نقد المشيخة نقدًا يتسم بالأدب والاحترام والتبجيل، وأنَّ الترجمة لشخص تقوم على العدل ومعرفة أحوال المترجَم له، ولا يحمله مخالفة الاعتقاد على التنقيص أو الذم.

وصاحب نتائج الأفكار تكلَّف في ديباجته، ومن تكلفه أنه ذكر مثالًا عربيًا بعيدًا عن محل الكلام فأفسد الكلام، فبيَّن العطار أوجه الفساد، ثم قال: «وبالجملة فالمتتبع لسجعه هذه الديباجة يعلم أنَّ غرضَ مُنْشِئها مجردُ جمعِ الكلام بعضه مع بعض كيفا اتفق، ولذلك تجدها خلية عن الطلاوة والحلواة التي توجد في غيرها، يعرف ذلك من ذاق حلاوة البيان، وتمرس بممارسة تراكيب أهل هذا الشأن»[٢].

فإنْ قلت: هذا التحقيق الذي نلحظه واضحًا عند العطار، ما سببه؟

أجيب: بأنه ناشئٌ من عدة أسباب، أهمها قوة العقل، وسعة الاطلاع، ومن دلائل ذلك ما يأتي من نماذج:

**الأول:** أنه يذكرُ جملةً من شروح كتاب، ويذكر أحسنها، فيقول: عن شرح الطوالع: «هو متن للبيضاوي المفسِّر في علم الحكمة والكلام، شَرَحَهُ الأصبهانيُّ والمراد الحديثي والصفوي وشيخ الإسلام زكريا الأنصاري، وقد اطَّلعتُ عليه، وأحسنها أولها، وحشَّى شرحَ الأصبهاني السيدُ الجرجانيُّ بحاشية صغيرة جدًا لم يستفرغ فيها وسعه لوضوح الشرح. وأما المطالع فهو متن

(١) المرجع السابق، ص ٧٠.

(٢) حاشية العطار على نتائج الأفكار (مخطوط)، ص ١٢.

للأُرْمَوي في علم المنطق أكبر حجمًا من الشمسية، شَرَحَهُ القطب الرازي، وحشَّاه السيد الجرجاني بحاشية مملوءة من التحقيقات، واعتنى الفضلاء بها، فوضعوا عليها حواشي جمة»[١].

**الثاني:** وقوفه على مؤلفات أفاضل لم تكن مشهورة عند علماء مصر كمؤلفات عبد الحكيم السيالكوتي ومير زاهد وغيرهما، ومما يدل على ذلك قوله وهو في غربته: «واعلم أن مبحث الحرف معترك أفهام الفضلاء حتى أفرده السيد الشريف برسالة مستقلة، ورأيت على تلك الرسالة شرحًا لبعض فضلاء المغرب، وهو العلامة ابن يعقوب من المتأخرين، وله شرح على مقاصد السعد، كلاهما رأيته بمصر، أعادني الله إليها وكل غريب لوطنه»[٢].

**الثالث:** أنه أعجب ببيتٍ يكثر الاستشهاد به في علم البيان، وظل يبحث عن قائله، حتى وقف عليه في أحد الكتب التي تتحدث عن الأندلس، وهذا البيت هو:

**وَالرِيْحُ تَعْبَثُ بِالْغُصُوْنِ وَقَدْ • ذَهَبُ الْأَصِيْلِ عَلَى لُجَيْنِ**

يقول العطار: «وكنتُ كثيرَ التشوق لمعرفة قائل هذا البيت لما فيه من الرقة الآخذة بالعقول، ثم ظفِرْتُ به في تاريخ المقري، المسمى بنفح الطيب، وهو الأديب أبو إسحاق بن خفاجة الأندلسي، شاعر مُفْلِقٌ، جل كلامه في وصف الرياض والحِيَاض»[٣].

فاطِّلاعُ العطارِ الواسع أوقفه على قائل البيت في غير مظانه، وكثيرًا ما يجد المرء إشارة لدقائق، وحلًا لإشكالات ليست مذكورةً في كتب الفن، من ذلك أنَّ

(١) حاشية العطار الصغرى على مقولات السجاعي، ص ١٧٣.
(٢) حاشية العطار على نتائج الأفكار (مخطوط)، ص ٩٤.
(٣) حاشية العطار على السمرقندية، ص١٤.

التصور مثلًا في علم المنطق يُطلق ويُراد به مطلق العلم، أو العلم الخالي عن الإذعان للنسبة الخارجية، فالتصور بالمعنى الأول يشمل التصور الساذَج والتصديق، وبالمعنى الثاني يختص بالتصور الساذَج الذي هو قسيمٌ للتصديق، وفي بعض الكتب الكلامية كحاشية الأمير على شرح عبد السلام للجوهرة، وجدت أن التصور قد يُطلق ويُراد به التصديق، يقول عبد السلام: «الواجب ما لا يُتصوَّرُ في العقل عدمه»، فَذَكَرَ الأميرُ اعتراضًا وجوابَهُ بقوله: «اعتُرِضَ بأنَّ العقل يتصوَّرُ عدمَ الواجبِ حتى يمكنه الحكم عليه بالاستحالة، فأجيب بأن المراد بالتصور التصديق»(١).

والمعنى أن التصور بمعنى إدارك ما عدا النسبة الخارجية على وجه الإذعان لا حَجْرَ فيه؛ لما قرَّره علماء المعقول من أنه لا حَجْرَ في التصورات، فيجوز لك أنْ تتصوَّرَ المعدومَ، بل أنْ تتصوَّرَ شريكَ الباري، يقول السيدُ المحقِّقُ: «والتصوُّر أمرٌ لا حَجْر فيه، يتعلق بكل شيء، حتى إنه يجوز أن يُتصوَّر التصوُّر، وأن يتصور التصديق، بل يجوز أن يُتصوَّر عدم التصور»(٢)، فأجيب بأن التصور هنا بمعنى التصديق، وهكذا أُطْلِقَ التصور وأريد به معنى آخر، وَوَرَدَ ذلك في أحد الكتب الكلامية، ومثل ذلك كثير.

**٣- تبيين الدقائق والنكات**:

يقول أبو القاسم السمرقندي في رسالته الموسومة بالسمرقندية «إن معاني الاستعارات وما يتعلق بها قد ذُكِرَت في الكتب مفصلة، عسيرة الضبط، فأردت ذِكْرها مجملة مضبوطة على وجهٍ نطق به كتب المتقدمين، ودلَّ عليه

(١) حاشية الأمير على شرح عبد السلام لجوهرة التوحيد، ص ٧٢.
(٢) حاشية السيد الشريف الجرجاني على تحرير القواعد المنطقية، ص٢٠، وما بعدها.

زُبُر المتأخرين»[١]، فكشف العطار عن وجه تعبيره في جانب المتقدمين بـ «نطق»، وفي جانب المتأخرين بـ «دل» بأنَّ «عادة المتقدمين بسط الكلام وإيضاحه؛ لأنهم بصدد بيان القواعد، والمتأخرون شأنهم الضبط والاختصار، فتكون دلالة كلامهم أخفى من دلالة كتب المتقدمين»[٢].

وهذا النص كشف عن أمر طال تنقيبي عنه، وهو سرُّ الحَلْقَةِ المفقودة بين كتب المتقدمين والمتأخرين، فبعض كتب المتقدمين واضحة العبارة، قريبة المنال، وبعض كتب المتأخرين أَوْجَزَتْ حتى ألْغَزَت، فلا يكاد يفهمها إلا أصحابها كالمجمل الذي لا يُدْرَكُ معناه إلا ببيانٍ ممن أجمله، وأذكر أنه قد طار عقلي أمام كتابات الأستاذ محمود محمد شاكر في الإعجاز، حتى استعنت على فهمها بكتب الأقدمين، كإعجاز القرآن للباقلاني، ورسائل أبي سليمان الخطابي، وأبي الحسن الرماني، وعبد القاهر الجرجاني في إعجاز القرآن، فوجدت عبارات هؤلاء أيسر وأوضح، فَكَشَفَ نصُّ العطارِ السابق عن علة ذلك، وهي أن عادة الأقدمين البسط والإيضاح، وعادة المتأخرين الضبط والاختصار، وتفاوتوا في الاختصار حتى وصل في بعضه إلى الإغراب والإلغاز، ولا شك أن هذا أمر أغلبي، لا كلي.

### ٤- الإعراض عما يخرج عن محل البحث:

أنهى العلامة البليدي مسألةً بلعن الفلاسفة، فتعقَّبَهُ تلميذُهُ العطارُ بقوله: «هذا تحصيل حاصل، وقد كان اللائق بحال المصنف أن يتصدَّى لتقرير مذهبهم أولًا على حسب ما قرروا، ثم يردُّ عليهم كما هي عادة العلماء المتصدرين لذلك، والمصنف حيث كان بصدد ذلك كان اللائق به هذا، أما أنه

(١) حاشية العطار على السمرقندية، ص١٣.
(٢) المرجع السابق، ص١٣.

لا يقرر مذهبهم على ما ينبغي، وربما خلط بينه وبين مذهب المتكلمين، وعند تمامه يشتغل بسبِّهم ولعنهم فمما لا يشفي عليلًا، ولا يبرد غليلًا، بل هو في عرف النظار إفحام[1]».

وحين قال ابن سينا في أرجوزته في الطب:

أمـــــا الطبيعيـــــاتُ فالأركـــــانُ • يقـــوم مـــن مِزَاجِهـــا الأبـــدانُ

وقـــولُ بُقْـــراطَ بهـــا صـــحيحُ • مـــاءٌ ونـــارٌ وثَـــرًى وريـــحُ

دليلُـــهُ فـــي ذا بـــأنَّ الجِسْـــمَا • إذا تَـــوَى عـــادَ إليهـــا رَغْمَـــا

ولـــو يكـــونُ الـــرُّكْنُ منهـــا واحـــدًا • لـــم تَـــرَ بـــالآلام حيًّـــا فاســـدًا

شنَّعَ عليه السنوسيُّ، وفي ذلك يقول العطار: «وأما تشنيع الإمام السنوسي على ابن سينا وتضليله... فمبنيٌّ على ظاهرٍ يقتضيه لفظه من الملازمة وأنها عقلية حيث صحح قولَ أبقراط الذاهب إلى ذلك، فيدل على موافقته بحسب الظاهر، وليس من البعيد أن يريد الملازمة العادية فلا يلزم شيء، وهذا أليق بتحسين الظن والتماس العذر لكل من أظهر الإسلام»[2].

### ٥- تحرير محل النزاع:

يُحرّر العطار مناشئ النزاع، ومن مسالكه في ذلك:

**أ- مراعاة الاعتبار:**

اختُلف هل الألفاظ ظروفٌ للمعاني أو العكس، يقول العطار: «والحقُّ التفصيل: فالألفاظ ظروف للمعاني باعتبار السامع؛ لأنه يسمع اللفظ فيفهم المعنى منه، والمعاني ظروف للألفاظ باعتبار المتكلم؛ لأنه يستحضر المعنى

(١) حاشية العطار على مقولات البليدي، ص ٢٨٧.

(٢) رسالة في مذهب الطبائعيين: العطار، ص ٨٦.

أولًا، ثم يأتي باللفظ على طِبْقه»[١]، فحرَّرَ الخلاف بناء على مراعاة الاعتبار، فباعتبار السامع شيء، وباعتبار المتكلم شيء آخر، ومراعاة الاعتبار مما يحل كثيرًا من مَحَال الاختلاف.

**ب- محل الحكم:**

**المثال الأول:** في السمرقندية: «إن كان المستعار اسم جنس ـ أي: اسما غير مشتق ـ فالاستعارة أصلية »، بحث فيه العطار بقوله: «هذه قضية شرطية مهملة، وقد تقرر في المنطق أن المهملة في قوة الجزئية، والقضية الجزئية لا تقع مسألة في العلم؛ لأن قضايا العلوم كلية، فكان الواجب أن يقول: «كلما كان المستعار....» لتكون القضية كلية، وحاصل الجواب أن قولهم: «مسائل العلوم لا بد أن تكون كلية» محله في العلوم العقلية، أما العلوم الأدبية[٢] ـ وهي الاثنا عشر علمًا ـ فقد تقع فيها القضية الجزئية مسألة»[٣].

**المثال الثاني:** مقرَّرٌ عند علماء المعاني أنَّ «إذا» يُعبَّرُ بها عن محقَّق الوقوع، و«إنْ» يُعبَّرُ بها عن مشكك الوقوع، وقد ورد في السمرقندية التعبير بـ «إن» في محقق الوقوع، ويُبين العطار وجه ذلك بقوله: «وقع التعبير بها كثيرًا في الرسالة مع كون الشرط محقق الوقوع، وهو مما يستعمل فيه لفظ «إذا» دون «إن» لكونها للمشكوك في وقوعه لما أن هذه النكات إنما يلتفت إليها في المحاورات والمخاطبات، وأما في تقرير مسائل العلوم فلا؛ لأنه ليس مقام تحسين، بل مقام تبيين»[٤].

**المثال الثالث:** ذكر الشيخ خالد الأزهري أنَّ كاد وأخواتها تسمى أفعال

(١) حاشية العطار على السمرقندية، ص١٥.
(٢) يراد بالعلوم الأدبية هنا: علوم العربية، وهي اثنا عشر علمًا.
(٣) حاشية العطار على السمرقندية، ص٢٧.
(٤) المرجع السابق، ص٣٧.

المقاربة، وهي من باب تسمية الكل باسم جزئه، وتوجيه كلامه: أنَّ معنى المقاربة موجود في بعضها، وبعضُها للرجاء، وبعضها للشروع في الخبر، فأطلق على مجموعها أفعال المقاربة، فبين العطار أنَّ محلَّ إطلاق الجزء على الكل إن كان إطلاق اسم الجزء على ما تركب منه ومن غيره كلٌّ، كإطلاق العين على الجاسوس، وأما الأشياء المجتمعة من غير تركيب باسم بعضها فيسمى تغليبًا كالعمرين في أبي بكر وعمر، والقمرين في الشمس والقمر(١).

**المثال الرابع:** القول باختلاف العلماء في جواز تعاطي علم الحكمة، فمنع العطار ذلك بتحرير بديع، مفاده أنَّ «الاختلاف في المجموع من حيث هو مجموع لا يوجب الاختلاف في كل فرد فرد؛ إذ قد يكون الاختلاف في المجموع من حيث اشتماله على جزء هو محط الخلاف كما هو الواقع هنا؛ فإن محط الخلاف في علم الحكمة هو العلم الإلهي؛ لاشتماله على العقائد الباطلة المصادمة للشرع »(٢).

ومنه القول بتحريم علم المنطق استنادًا إلى بعض أقوال العلماء كابن الصلاح والنووي، فبيَّنَ العطارُ أنَّ محلَّ الخلاف هو المنطق المخلوط بالفلسفة اليونانية المصادمة للشرع، وأشار إلى مستنَدِ القائل: بأن السيوطي عمم في كتابه «القول المشرق في تحريم المنطق» القول بتحريم تعلُّم علم المنطق سواء كان مخلوطًا بالفسلفة اليونانية أم غير ملخوط، وأجاب عنه بقوله: «وقول السيوطي في «القول المشرق»: (فإن قلت: لعل كلام مَن حط عليه محمول على المنطق المخلوط بالفلسفة، لا المجرد عنها كالذي في زماننا، قلت: لا يصح الحمل؛ لأنهم ردوا على الغزالي حيث قال: وهذه مقدمة العلوم كلها، وقد

(١) ينظر: حاشية العطار على الأزهرية، ص ٣٩٥.
(٢) حاشية العطار الكبرى على مقولات السجاعي، ص ١٠.

أشار إلى القواعد المنطقية التي ذكرها، وليس فيها فلسفة، فتعيَّن أنَّ المراد بالتحريم غير ما فيه الفلاسفة أيضًا) كلامٌ إقناعيٌّ، والإنصاف أنَّ القول بتحريم المنطق الموجود في زماننا قولٌ بلا دليل»[١].

بل قال العطار عن كتاب «القول المشرق» للسيوطي: «اطلعتُ عليه وتصفحته، فرأيته نَقَلَ عن غيره ممن تقدَّمه القول بالتحريم والتشنيع من غير أن يذكر لواحد منهم دليلًا ينهض حجة على ما ادَّعاه، ومدار ما تمسكوا به أنه مختلط بعلم الفلسفة»[٢].

### ٦- مراعاة تواشجية العلوم:

العلوم في المنظومة المعرفية الأزهرية رحم متصل، ومَن ينظر إلى مؤلفات العطار يجد مثلًا أنه في حاشيته على السُّلَّم في المنطق يذكر شيئًا من علم المقولات، ومن علم آداب البحث، ومن علم العروض، ومن علم البيان، وفي حاشيته الصغرى على مقولات السُّجاعي تراه يوضح المسائل ويحررها بجملة من العلوم، فتراه يذكر شروح التجريد والهداية في الحكمة، وشرح المواقف للسيد الشريف الجرجاني وشرح المقاصد لسعد الدين في علم الكلام، وشرح الزركشي وشيخ الإسلام زكريا الأنصاري على جمع الجوامع في أصول الفقه وغير ذلك، ولا تعقيد في ذلك؛ لأنَّ المنهجية الأزهرية على أنَّ العلوم متشابكة، وسنرى ذلك في صورة تطبيقية بذكر أربعة أمثلة:

**المثال الأول:** في حاشيته على نتائج الأفكار في علم النحو ينقل عن منظومة معرفية متنوعة، من ذلك نقله عن: حاشيتَي عبد الغفور والبوسنوي على الفوائد الضيائية للجامي، وامتحان الأذكياء للبركوي على شرح اللب

(١) حاشية العلامة العطار على متن السلم، ص ١٠٠.
(٢) المرجع السابق، ص ٩٨.

للبيضاوي، وحاشية ميرزا جان على شرح حكمة العين، وحاشيتي اللاري والفناري على المطول للسعد التفتازاني، وحاشية الفناري على التلويح للسعد، وحاشية السيد الشريف الجرجاني على مطالع الأنوار للأرموي، وحاشيتي السيد الشريف الجرجاني وعبد الحكيم السيالكوتي على شرح الشمسية، وحاشيتي السيد الشريف الجرجاني والسعد التفتازاني على الكشاف للزمخشري، وحاشية العصام على تفسير البيضاوي، وشرح الجلال الدواني للعقائد العضدية.

**المثال الثاني:** مما استفتح الشيخ «خالد الأزهري» أزهريته في علم النحو: «وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، المنزَّهُ كلامُه عن الألفاظ بالحروف في المقال»، فعلق العطار بأنَّ لكلام الله تعالى إطلاقين:

١. يُطْلَقُ على الكلام اللفظي الذي نقرؤه، ونتعبد به، ومعنى إضافته لله تعالى أنه مخلوق له تعالى ليس من تأليفات البشر، وهذا الكلام ليس منزَّهًا عن الألفاظ والحروف، بل هو ألفاظ وحروف.

٢. ويُطلق على الصفة النفسية القديمة القائمة بذاته تعالى التي هي إحدى صفات المعاني كالعلم والإرادة وغيرهما من بقية صفات المعاني، وهذه الصفة هي المنزهة عن الحروف والألفاظ عند عامة أهل السنة(١).

فقول الشيخ خالد «المنزه كلامه عن الألفاظ بالحروف في المقال» محمولٌ على الكلام النفسي القائم بذاته تعالى، فهو المنزه عن ذلك، لا الكلام اللفظي الذي نقرؤه ونتعبد به، فإنه مخلوق لله، والخالي من علم الكلام لن يفهم هذه المسألة حق فهمهما، بل ربما يقع في تخليطات تؤول به إلى التجسيم والتشبيه مدعيًا أنه عين التنزيه، فقد يتوهم أنَّ صفة الكلام التي هي إحدى صفات المعاني هي بالصوت والحرف لكن بكيفية لا نعلمها مخالِفًا بذلك السلف

(١) حاشية العطار على الأزهرية، ص ١٦.

والخلف، والفرق بين هذا القِيل وقِيل أهل السنة أنه أَثبت اللفظَ والمعنى الظاهري الذي يفيد التجسيم، وأراد أن يخرج من التجسيم فنفى العلم بالكيف، فانضاف إلى إثبات التجسيم التناقض، أما أهل السنة فيصرفون الألفاظ المُوهِمة للتشبيه عن إرادة المعني الظاهري باتفاق السلف والخلف، ثم يسلكون في المعنى إحدى طريقين: طريق السلف، وهو يفوض علم المعنى إلى الله تعالى، وطريق الخلف، وهم يُعيّنون المعنى بما يتفق مع القواعد الشرعية والعقلية، أما الكيف فُهْم لا يُثْبِتُونه أصلًا حتى يُفوّضوا العلم بكيفيته، ومحل الكلام في علم الكلام.

**المثال الثالث:** من القواعد المقررة في إقامة التعاريف أنَّ الحدود تُصان عن المجاز، وأول ما تُذكر الحدود ينصرف الذهن إلى علم المنطق؛ إذ فيه تُذكر الحدود والرسوم، وشروط صحتها، لكن هل صون الحدود عن المجاز خاصٌّ بالمناطقة وحدهم؟ وهل هو واجب أو غير واجب؟ يقول العطار: «وصون الحدود إما واجب كما في حدود أهل المنطق، أو أَوْلَوِيٌّ كما في حدود أهل العربية، وعلة ذلك أن المقصود من الحدود والتعاريف الكشف والإيضاح، والمجاز خفي، فينافي الغرض من التعريف، نعم إن اشتهر المجاز صار كالحقيقة العرفية فلا يصان عنه التعريف، ولذلك إذا اشتمل تعريف على مجاز يتكلفون في تصحيحه بدعوى أن المجاز مشهور، والمجاز المشهولا لا يصان عنه التعريف»(١).

أي: صون الحدود عن المجاز أمر متفقٌ عليه عند المناطقة وأهل العربية، غير أنه واجب عند المناطقة، وأولوي عند أهل العربية، وإن كان المجاز مشهورًا فيجوز اشتمال التعريف على المجاز عند كلٍّ.

(١) حاشية العطار على الأزهرية، ص ٣٥.

**المثال الرابع:** مدلول الفعل عند النحاة مركب من الحدث والزمان والنسبة، فأُورِدَ عليهم أنَّ مدلول اسم الفاعل مركب كذلك من الحدث والزمان، فأجاب العطار بأن «الكلام في المدلول الوضعي، ودلالة اسم الفاعل على الزمان التزامية، وليست وضعية»(١).

والدلالة الالتزامية هي دلالة اللفظ على معنى خارج عما وُضِعَ له اللفظ لازم له، ومحلُّ ذلك علم المنطق، ففيه تُعرف الدلالة اللفظية وغير اللفظية، وأنَّ كلًا منهما ينقسم إلى دلالة وضعية وعادية وعقلية، وأنَّ الدلالة اللفظية الوضعية تنقسم إلى مطابقية وتضمنية والتزامية، وأن المناطقة يشترطون في الدلالة الالتزامية أن يكون اللزوم بالمعنى الأخص، واختلفوا في اللزوم العرفي خلافًا أهل العربية فاللزوم عندهم أعم من اللزوم عند المناطقة، والطالب هنا إنْ لم يكن دَرَسَ المنطق، فأنَّى له أن يفهم الفرق بين المدلول الوضعي والمدلول الالتزامي لاسم الفاعل؟.

**المثال الخامس:** يقول الأزهري: «وأجزاء الكلام التي يتركب منها ثلاثة أشياء: الاسم، والفعل، والحرف، وهي الكلمات الثلاث، ولا رابع لها»، فيقول العطار: «قوله: ولا رابع لها» أي: بالاستقراء، فحصرُ الكلمةِ في الثلاثةِ استقرائيٌّ»(٢).

ومحلُّ معرفةِ الحصرِ وأقسامِه علمُ صناعةِ التوجيه، ففيه يُذكر حصر الكلي في جزئياته، وحصر الكل في أجزائه، وفيه يُذكر الحصر الاستقرائي، والحصر العقلي، والحصر الجعلي، فهنا احتيج إلى معرفة علم آداب البحث والمناظرة.

(١) المرجع السابق، ص ١٤٧.
(٢) المرجع السابق، ص ٥١.

**٧- عدم الاكتراث بالمماحكات اللفظية**:

وجَّهَ العطارُ نظرَهُ نحو المعاني والمقاصد، ولم يقف عند الألفاظ والقشور، شأنه في ذلك شأن علماء العجم، من ذلك أنه أخذ على الجلال المحلي ملاحظته الفرق بين التعبير بالأصلين والتعبير بالأصوليين، فيقول العطار: «إن أمثال هذه المناقشات في غاية الوهن، ولذلك لم نرَ أحدًا من مُحقِّقي الأعاجم يسطرونها في كتبهم، وإنما شغف بأمثالها مَن تعوَّد نقد الألفاظ فيما قلَّ وجلَّ، واللائق الالتفات لجانب المعنى؛ لأنه المقصود واللباب، واللفظ كالقشر، نعم الأدبيون يحافظون على تحسين الألفاظ لغرض لهم يتعلق بذلك؛ إذ المعاني المقصودة لهم تخيلات تؤدى بها»(١).

وكأن العطار يأخذ على بعض علماء المدرسة الأزهرية الوقوف عند الألفاظ ونقدها، وهو ما لا يلتفت إليه الأعاجم، وهذا يدلنا على أنَّ مخالطة المدراس العلمية المختلفة يصقل الشخصية المعرفية، ويطيل عمرها المعرفي، بخلاف الوقوف على مدرسة علمية واحدة.

**٨- الجريان على عادة العلماء في التأليف**:

أذكر لذلك مثالين:

**المثال الأول:** جَرَت عادة العلماء أنْ يُتكلم في صدر كل فن عن البسملة بما يلائم ذاك الفنَّ المشروع فيه، قيامًا بحقَّيْن: حق البسملة، وحق الفن، يقول العلامة الصاوي: «والتكلم عليها من غيره يُفوّت الحق الثاني، وترْك الكلام رأسًا قصور أو تقصير»(٢).

(١) حاشية العطار على شرح جمع الجوامع: ١/ ٣٥.

(٢) حاشية الصاوي على تحفة الإخوان للدردير، المطبعة الأزهرية المصرية، ١٣١٠هـ، ص٣.

فأمامنا ثلاثة أحوال: أن لا يُتكلم عن البسملة أصلًا، أو يُتكلم عنها من الفن غير المشروع فيه، أو من الفن المشروع فيه، فالأول مُفوّت لحق الفن، والثاني قصور أو تقصير، والثالث هو المناسب، وإنما كان مناسبًا لاشتماله على حقِّ البسملةِ فتحصل البركة، وحقِّ العلمِ فتأنس نفس الطالب، وتتأهب للعلم، لذا ترى العلماء يضمنون البسملة بعضًا من جواهر المسائل لشحذ عزيمة الطالب وسَوْقه إلى العلم.

وقد أجمل العطار ذلك بقوله: «اعلم أنه يُستحسن في صناعة التعليم والتدوين: التكلُّم على البسملة من الفن المشروع فيه؛ تحصيلًا للبركة، وإشعارًا لذهن الشارع في الفن ببعض مسائله إجمالًا؛ ليستأنس بذلك، ويستعد إليه بعد»(١).

وقد راعى هذا الغرض، ففي حاشيته على السمرقندية مثلًا تكلم عن البسملة بما يناسب تحقيق معاني الاستعارات التي هي من جملة علم البيان، وختم كلامه عن البسمله بقوله: «وأما الكلام على جملة البسملة، فإنه يستدعي تطويلًا وبسطًا طويلًا، فاحرص على ما ذكرت، واستغفر الله لي جزاء على ما لك جلبت»(٢).

وهذا يُعلّم أن لكل مقام ما يناسبه، فكلام أرباب الحواشي عن البسملة ليس مجرد معلومات تُطرح في طالعة الحواشي، بل يسوقون ذلك لغرضٍ تعبُّدي وتعليمي.

**المثال الثاني:** مراعاة مستوى الطالب، صيغت كتب العلم على ثلاثة مستويات: المبتدئين والمتوسطين والمنتهين، فلا يُكتب للمبتدئ ما للمنتهي، مثلًا كتاب الأزهرية للشيخ خالد الأزهري كتاب للمبتدئين، وبهذا الاعتبار صاغ

(١) حاشية العطار على شرح إيساغوجي، ص ٣.
(٢) حاشية العطار على السمرقندية، ص٦.

العطار حاشيته عليه، فلا يُكثر من الاستطراد، كما فعل في بيان الخلاف في أنَّ الألفاظ موضوعة للمعاني وضعًا قصديًا، ولأنفسها وضعًا غير قصدي أم لا، والخلاف في ذلك بين السيد والسعد، ولما استطرد في هذا الموضع أعقب ذلك بقوله: «وإنما ذكرنا هذه العبارة هنا وإن كان فيها صعوبة للمبتدئ، لكنها لنفاستها وعموم نفعها وشَّحنا بها حاشيتنا حرصًا على تقييد أوابد الفوائد»(١).

فكلامه منسوج لمستوى معين، لا يخرج عنه، وإن خَرَجَ فلغرض، فلا يذكر في المسألة كل ما يعرفه عنها، وإنما يذكر ما يناسب المستوى المُوجَّه إليه الحاشية.

### ٩- توثيق أحداث تاريخية في كتبه:

حرص العطار على الإشارة إلى بعض الأحداث التاريخية في نهاية كتبه أو مطلعها، وهو أمر مهم يكشف عن أحوال هذه الأحداث، وعن نفسية العالِم وحاله، ومن ذلك هذه النماذج:

**الأول:** أشار إلى الطاعون الذي نزل بمصر سنة ١٢١٢هـ، وذلك في ختام حاشيته على السمرقندية التي انتهى منها ختام سنة ١٢١٢هـ، يقول: «ومن الاتفاقات العجيبة أني أَلَّفْتُ هذه الحاشية والهموم متكاثرة مترادفة؛ لأن العام عام طاعون تتوارد فيه الفجعات، وتتوالى الحسرات، فلما قدر الله بإتمامها حصل لي غمٌّ عظيم كان مكافئًا لجميع ما تقدم، أسأل الله أن يكون آخر غم وهم، وإنما قلت هذا الكلام وأظهرته ليعذرني مَن طالع فيها، حتى إذا رأى شيئا طغى به القلم أَقَالَ عثرتي، أقال الله عثرتنا، وغفر لنا...» (٢).

**الثاني:** أشار إلى الطاعون العظيم الذي حلَّ بمصر سنة ١٢٣٩هـ، يقول:

(١) حاشية العطار على الأزهرية، ص ٧٦.
(٢) حاشية العطار على السمرقندية، (ص ٨٨).

«ثم جاء الطاعون، ومات من أهل العلم جماعة، ومرض البعض، والبعض فرَّ إلى بلاده، وصار مَن بقي ما بين عائد مريض، ومشيع جنازة، ومشغول بخدمة مَن مرض عنده، والأفكار تكدرت، والهموم تكاثرت، والأوهام غلبت، وكان معنا في ابتداء إقراء الكتاب جماعة كثيرة من أذكياء الطلاب قلوا جدًّا، وصارت أفكارهم لذلك الحادث غير قابلة للبحث في غوامض المسائل المحتاجة لصفاء الفكر وعدم شغل البال، وفكري أنا أيضًا كذلك لتمرُّض عيالي، وخوفي على أحبابي، وحزني على مَن مات منهم، وإشفاقي على المتمرضين.... وتم في يوم السبت من النصف الثاني من شهر شعبان، عام تسعة وثلاثين بعد المائتين والألف»[1].

**الثالث:** في نهاية الجزء الأول من حاشيته على جمع الجوامع يقول: «وكان ذلك في يوم الأربعاء من ذي القعدة سنة ١٢٤٤، ألف ومائتين وأربع وأربعين، أحسن الله ختامها، وهي سنة شرور وفتن وحروب وغير ذلك، لطف الله بنا وبالمسلمين بمنه وكرمه آمين» [2].

ولهذا المنحى التوثيقي من العطار دلالة تربوية بأن يقيل القارِئُ عثرته متى وجد له عثرة، ودلالة تاريخية بأنه قد وثَّق أحداثًا ربما يُلتفت إلى مراراتها التي ذِيقت وقتذاك.

(١) حاشية العطار على شرح الخبيصي، (ص ١٣٨).
(٢) حاشية العطار على جمع الجوامع، (١/ ٥١٦).

## الخاتمة

**أولًا: النتائج:**

١. العلامةُ العطارُ شخصيةٌ فريدةٌ، ليس صنيعةَ البيئةِ العلميةِ وحدها، بل كان كعبُهُ أعلى منها، وسرُّ ذلك إنما هو عنايةٌ إلهية، وعزيمةٌ تَفُلُّ الحديدَ، نشأ عن ذلك ما جعله متميِّزًا عن غيره.

٢. العلامةُ العطارُ صاحب مدرسة خاصة نالت قَبُولَ ما يُعْرَفُ بمدرسة المحافظين ومدرسة الإصلاحيين معًا؛ لجَمْعِهِ بين القديم والحديث، والأصول والفروع، وعلوم العرب والعجم.

٣. من أهم أسرار تميُّزِ العلامة العطار عن أقارَنِهِ: أنه انفتح على الثقافات المختلفة، فاتصل بمدرسة العجم التي تمتاز بدِقَّةِ النظر، ولم يكن لأهل ديارنا عِلْمٌ بهذه المدرسة آنئذٍ، وتلقَّى عنهم علومًا لم تكن ذائعةً في بلادنا كعلم الطب والهندسة والمقولات وصناعة التوجيه، ووَقَفَ على كُتُبٍ كان لا يملكها غيره في مصر نَسَخَهَا من بعض السائحين القادمين من بلاد العجم.

٤. في حياة العطار كلها، سواء كان قبل سفره أو أثناء سفره أو بعد سفره، وسواء كان قبل توليه مشيخة الأزهر أو بعدها، كان ينتقِي مجموعةً من النابهين والأذكياء، ويتدارسون دقائق العلوم، وكان هذا من بواعث كتابةِ كثيرٍ من حواشيه، وهو يُفسِّرُ لنا أثر البيئة العلمية التي كان يصعنها لنفسه العلامة العطار.

٥. للتجديد ذراعان: التمكُّنُ من القديمِ، واستيعابُ المحدَثِ، والإغراقُ في المُحدَثِ دون التمكُّنِ من القديم لا يُنتِجُ إلا مُسُوخًا ودُمَىً ثقافيةً مُشوَّهَةً، وامتلاكُ العطارِ لهذين الذراعين كان من أسرار خلودِ كُتُبِهِ وعُلُوِّهَا على الأزمنة مع تطاولها وتعاقبها.

٦. الرسوخ في العلم لا يتوقَّفُ على عَيْشٍ رَخِيٍّ ناعمٍ، وإنما طريقُهُ الالتجاءُ

إلى الله تعالى والتوسُّلُ إليه برسوله عليه الصلاة والسلام في أنْ يُيسِّرَ له السُّبَلَ، وأنْ يُزِيلَ عنه الموانِعَ، وأنْ يَقْطَعَهُ عن كلِّ ما سواه، وأنْ يَجْمَعَهُ على يدِ الأشياخ العالِمِين العاملين، فالعطارُ فَّر إلى أسيوط وقت أن جاء الاحتلال الفرنسي إلى مصر، ثم سافر إلى ألبانيا وتركيا والشام والحجاز، وذاقَ مَرَارَةَ الغُرْبةِ، وضيقَ العيشِ، وفِقْدَانَ الأنيسِ، ومع ذلك ظل في رياض العلمِ تعلُّمًا وتعليمًا وتدريسًا حتى خطَّت أنامِلُهُ حاشِيَتَهُ الصغرى على مقولاتِ شيخِهِ السُّجَاعي قبل وفاته بنحو ثلاثة أشهر وسِنُّهُ في نحو السبعين.

**ثانيًا: التوصيات:**

١. تكوين لجان علمية مختصة لجمع وتحقيق ونشر كتب العلامة العطار التي لا يزال معظمها مخطوطًا للأسف!

٢. إحياء البيئة العلمية للعاملين في المجالات الشرعية، ونقلها من دائرة الوظيفية إلى دائرة الرسالة.

## المراجع

١. أسانيد المصريين: الدكتور/ أسامة الأزهري، دار الفقيه للنشر، الإمارات العربية المتحدة، ط١، ١٤٣٢هـ – ٢٠١١م.

٢. أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث: أحمد تيمور باشا، دار الآفاق العربية، القاهرة، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٣م.

٣. الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي، دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠١٠م، ٢/٤٣٠.

٤. أعيان البيان من صبح القرن الثالث عشر الهجري إلي اليوم: حسن السندوبي، مطبعة الجمالية، ط١، ١٣٣٢هـ = ١٩١٤م.

٥. تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطيين: العلامة/ عبد الله الشرقاوي، المطبعة المصرية، ط١، ١٢٨٦هـ.

٦. تكملة المعاجم العربية: رينهارت بيتر، نقله إلى العربية وعلق عليه: محمَّد سَليم النعَيمي، وجمال الخياط، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، ط١، ١٩٧٩م.

٧. ثلاثة أعوام في مصر وبَر الشام: س. ف. فولني، ترجمة: ادوار البستاني، منشورات وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٤٩م.

٨. جمهرة أعلام الأزهر في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الهجريين: د. أسامة الأزهري، تصدير: د. مصطفى الفقي، مكتبة الإسكندرية، ط١، ١٤٤٠هـ – ٢٠١٩م.

٩. حاشية الأمير على شرح عبد السلام لجوهرة التوحيد للإمام اللقاني، مكتبة ذخائر الوراقين، القاهرة، ط١، ١٤٣٨هـ – ٢٠١٧م.

١٠. حاشية الحفناوي على شرح أبي الليث السمرقندي على الرسالة العضدية مع حاشية الدسوقي، المطبعة الأزهرية بمصر، ١٣٤٧هـ – ١٩٢٩م، نشر المكتبة الأزهرية للتراث بالقاهرة.

١١. حاشية السيد الشريف الجرجاني على تحرير القواعد المنطقية للقطب الرازي، المكتبة الأزهرية للتراث ـ القاهرة، ١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م.

١٢. حاشية الصاوي على تحفة الإخوان للدردير، المطبعة الأزهرية المصرية، ١٣١٠هـ.

١٣. حاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع للإمام السبكي، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

١٤. حاشية العطار على شرح الخبيصي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٨٠هـ ، ١٩٦٠م.

١٥. حاشية العطار على شرح شيخ الإسلام زكريا الأنصاري على متن إيساغوجي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ مصر، ١٣٤٧هـ.

١٦. حاشية العلامة العطار الصغرى والكبرى على مقولات السُّجَاعي، دار ميراث النبوة، القاهرة، ط١، ١٤٤٢هـ – ٢٠٢١م.

١٧. حاشية العلامة العطار على الرسالة الولدية، تحقيق وتعليق: د. عمرو الجندي، دار الضياء، الكويت، ط١، ١٤٤٣هـ – ٢٠٢٢م.

١٨. حاشية العلامة العطار على السمرقندية، شركة المطبوعات العلمية، القاهرة، ١٣٢٧هـ.

١٩. حاشية العلامة العطار على شرح الأزهرية في علم النحو للشيخ خالد الأزهري، دار ميراث النبوة، القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ – ٢٠٢١م.

٢٠. حاشية العلامة العطار على متن السلم، تحقيق: د. عبد الغفار عبد الرؤوف حسن، مكتبة دار الإمام الرازي، القاهرة، ط١، ١٤٤٣هـ – ٢٠٢٢م.

٢١. حاشية العلامة العطار على مقولات البليدي، المعروفة بالحاشية الكبرى، المطبعة الخيرية، القاهرة، ١٣٢٨هـ – ١٩١٠م.

٢٢. حاشية العلامة العطار على نتائج الفكر (مخطوط)، المكتبة السليمانية بتركيا، رقم: (١٤١٠).

٢٣. حلية البشر في تاريخ القرن الثالث العشر: عبد الرزاق بن حسن بن إبراهيم البيطار، دار صادر . بيروت، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٤١٣هـ . ١٩٩٣م.

٢٤. الخطط الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة: علي باشا مبارك، المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق مصر، ط١، سنة ١٣٠٥هـ.

٢٥. راحة الأبدان في نزهة الأذهان للعطار (مخطوط)، المكتبة الأزهرية، خصوصي (٨٥١) طب، عمومي (٩٨٥٧٤)، عدد الأوراق: (٢٥٠).

٢٦. طبقات الشافعية الكبرى: تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي، تحقيق: د. محمود محمد الطناحي د. عبد الفتاح محمد الحلو، دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي، ط٢، ١٤١٣هـ.

٢٧. عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم (مصر ما بين ١٨٣٣ – ١٨٣٥): إدوارد وليم لاين، ترجمة: سهير سدوم، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط٢، ١٤١٩هـ – ١٩٩٩م.

٢٨. عجائب الآثار في التراجم والأخبار: عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، تحقيق: د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، دار الكتب والوثائق القومية بمصر عن طبعة بولاق، ١٩٩٨م.

٢٩. فهرس الخزانة التيمورية، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٤٨.

٣٠. الفوائد المكية فيما يحتاجه طلبة الشافعية من المسائل والضوابط والقواعد الكلية (ضمن مجموعة سبعة كتب مفيدة): السيد علوي بن أحمد السقاف، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، الطبعة الأخيرة.

٣١. في فكرنا الحديث والمعاصر، أ.د/ حسن الشافعي، مكتبة ذخائر الوراقين ـ مصر، ط١، ١٤٣٧هـ ـ ٢٠١٦م.

٣٢. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي المشهور باسم حاجي خليفة أو الحاج خليفة، مكتبة المثنى – بغداد، ١٩٤١م.

٣٣. مصر في القرن الثامن عشر: الأستاذ/ محمود الشرقاوي، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٢، ١٩٥٧م.

٣٤. معيد النعم ومبيد النقم: تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٦ م.

٣٥. مقدمات في مشاريع البعث الحضاري: د. سيد دسوقي حسن، دار القلم، الكويت، ط١، ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م.

تم بحمد الله